أطواق الذهب
في المواعظ والخطب
المسمى بـ «النصائح الصغار»

تأليف

العلامة جار اللَّه محمود بن عمر الزمخشري

شرح وتعليق

راشد بن مصطفى الخليلي

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن حياة الزمخشري

هو إمام التفسير والنحو واللغة والأدب. جار اللَّه، أبو القاسم الزمخشري، معتزليّ المذهب.

ولد الزمخشري في بلدة زمخشر من أعمال خوارزم، يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ٤٧٦ هـ. أخذ الزمخشري الأدب عن أبي مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني، وعن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري، وسمع من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي، ومن أبي سعد الشقاني النيسابوري.

اتخذ رِجلاً من الخشب بسبب بَتْر رِجله، وسأله الإمام الدامغاني عن سبب قطع رِجله فقال: دعاءُ الوالدة، وذلك أني أمسكت عصفوراً وأنا صبي صغير وربطت برجله خيطاً فأفلت من يدي ودخل خرقاً فجذبتُه فانقطعت رجله، فتألمت والدتي وقالت: قطع اللَّه رجلك كما قطعت رجل العصفور، فلما رحلت إلى بخارى في طلب العلم سقطتُ عن الدابة في أثناء الطريق فانكسرت رجلي وأصابني من الألم ما أوجب بترها.

كان قاسياً على مخالفيه، مسفّهاً للصوفية وآرائهم كلَّما أظهروا أموراً تخالف الشرع.

جاور الزمخشري مكة بعد رحلةٍ طويلة إلى مدنٍ عدة منها خراسان وأصفهان وبغداد، ثم خرج من مكة قاصداً همذان وطوَّف بالجزيرة ثم عاد إلى وطنه زمخشر ثم عاد إلى مكة المكرمة مرة ثانية بعدما مرَّ بالشام. ثم ترك مكة المكرمة ليسافر إلى خوارزم ويقيم فيها حتى وافته المنية ليلة عرفة سنه ٥٣٨هـ. عن عمر يقارب الواحد والسبعين عاماً رحمه اللَّه.

من تصانيفه:

١ ـ «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل».

٢ ـ «الفائق في غريب الحديث».

٣ ـ رؤوس المسائل» (في الفقه).

٤ ـ «معجم الحدود» (في الفقه).

٥ ـ «المنهاج» (في أصول الفقه).

٦ ـ «ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض».

٧ ـ «مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة».

٨ ـ «شقائق النعمان في حقائق النعمان» (في مناقب الإمام أبي حنيفة).

٩ ـ «شافي العي (أو العي) من كلام الإمام الشافعي رضي اللّه عنه.

١٠ ـ «رسالة في حكمة الشهادة».

١١ ـ «أساس البلاغة».

١٢ ـ «الجبال والأمكنة والمياه».

١٣ ـ أعجب العجب في لامية العرب».

١٤ ـ «شرح مقامات الزمخشري».

١٥ ـ «المستقصى في أمثال العرب».

١٦ ـ «جواهر اللغة».

١٧ ـ «متشابه أسامي الرواة».

١٨ ـ «صميم العربية».

١٩ ـ «معجم عربي/ فارسي».

٢٠ ـ «المفصل» (في علم النحو).

٢١ ـ «الأنموذج» (في علم النحو).

٢٢ ـ «المحاجاة بالمسائل النحوية».

٢٣ ـ «مقدمة الأدب».
٢٤ ـ «نكت الأعرابي في غريب الإعراب».
٢٥ ـ «الأمالي» (في علم النحو).
٢٦ ـ «المفرد والمركب أو المؤلف» (في علم النحو).
٢٧ ـ «شرح بعض مشكلات المفصل» (في علم النحو).
٢٨ ـ «القسطاس» (في علم العروض).
٢٩ ـ «نوابغ الكلم».
٣٠ ـ «مقامات الزمخشري».
٣١ ـ «أطواق الذهب» (وهو كتابنا هذا).
٣٢ ـ «ديوان الزمخشري».
٣٣ ـ «القصيدة البعوضية».
٣٤ ـ «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار». (كتاب في الأدب).
٣٥ ـ «النصائح الصغار والبوالغ الكبار».
٣٦ ـ «نزهة المستأنس».
٣٧ ـ «ديوان الرسائل».
٣٨ ـ «ديوان التمثيل».
٣٩ ـ «تسلية الضرير». (في الأدب).
٤٠ ـ «رسالة الأسرار». (في الأدب).
٤١ ـ «الرسالة الناصحة» (في الأدب).
٤٢ ـ «سواتر الأمثال» (في الأدب).
٤٣ ـ «رسالة المسأمة» (في الأدب).
٤٤ ـ «عقل الكل» في المنطق).
٤٥ ـ كتاب الأجناس». (في المنطق).

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة المؤلف

اللَّهم إنِّي أحمدُك على ما أزْللت[١] إليَّ من نعمتك، وعلى ما أزلتَ عنِّي مِنْ نِقمتِك. على أنِّي لم أكن أهلا للأُولى، وكنتُ بالثانية أَوْلى. لولا فضلٌ منك سابقٌ حمدُ الحامد وراءه يَقْطُفُ[٢]، وإنْ أعْنَقَ فكأنَّه مصفودٌ يرسُفُ[٣].

وكرمٌ باسِقٌ شُكْرُ الشاكر يَنُوءُ تحته بجناحِ مهيضٍ[٤]، وإنْ حلَّقَ فكأنَّه لاصقٌ بالحضيض ثم إنِّي أحمدُك حمداً بعد حمدٍ عوداً على بَدْءٍ. واجعل توفيقكَ معي ردْأً وكفى به من ردءٍ[٥] على صُنْعِ ما هَجَسَ في ضمير نفسٍ[٦]. ولا اتَّصلَ يوماً بظنٍّ ولا حَدْسٍ، [من تيسير الفيئةِ التي بإحسانك المتظاهر جَذَبْتَ إليها بضبعي[٧]. وبسلطانك القاهر قَسَرْتَ عليها طَبْعي، وبنظرك الصادق خفَّفتَ عليَّ مجاشِمَهَا المُتْعِبةَ[٨]. وسهَّلْتَ تكاليفها المُتصعِّبة]، وَفَكَكْتَ مِنْ رقِّ التَّبعات عُنقي، ومننتَ بحلِّ إساري وعِتقي، ورقَّيتني إلى رُتبة القناعة وهي الرُّتبةُ العلياء وزهَّدتني في الحرص على زُخرُف الدنيا، وطيَّبتَ نفسي بغوارز أخلافها عن الغِزار وترضَّيتها بعد الدَّرَّةِ

(١) أزللت: أسديت.
(٢) يقطف: يقصر.
(٣) أعنق: أسرع، ومصفود يرسف: أي مقيد يمشي.
(٤) باسق: عال، ينوء: يتحرك في جهدٍ ومشقة، مهيض: مكسور.
(٥) ردأً: عوناً.
(٦) هجس: خطر.
(٧) الفيئة: العودة، الضبع: العضد وهو ما بين المرفق والكتف.
(٨) المجشم: المشقة.

بالغِزار[١]، ولما اقتَرَحْتُ عليك الأسبابَ المقصية[٢] عن الدار التي اقترفْتُ فيها المعصية، عطفتَ عليَّ في ذلك عطف حفِيٍّ[٣]. وَتَدَارَكْتَنِي بلُطْفٍ خَفيٍّ، فاصطنعتني بالنقل إلى أحبِّ بلادك إليك[٤]، وأعزِّها وأكرمها عليك، وحلَّيتني بدُمْلج الفخر وسِواره[٥] حين شرَّفتني بحجِّ بيتك وجواره، وأسألك أنْ تصليَ على خاتم أنبيائك، وسيِّدِ أحبَّائك وأصفيائك محمدٍ وآله عِتْرة الهدى، وصحابته زُمرةِ البِرِّ والتُّقى، وأرغبُ إليك أن تجعل عقيدتي وطويَّتي، وبديهتي ورويَّتي، وما خطَّ بناني وخط بجناني[٦]، وكلَّ ما ألَّفتُهُ من أقوالي وكلمي، وأسَلَةَ مقولي على سِنِّي قلمي[٧]، خالصةً لك ومن أجلك، مطلوبةً بها نفحات سَجْلِكَ، وأنْ تفيض على هذه المقالاتِ من البركة والقبول، ما يُهبُّها مهبَّ الجنوب والقبول[٨]، وأنْ تحفظ فيها ما أوجبْتَ للجار من حقِّ الذِّمام لأنها[٩] وُجدتْ في حرمك المُطهَّر، ووُلِدَتْ في حجر بيتك المُسَتَّر، وأن تنفع بها مُنشئها وقابسها ومُقْبسها ودارسها[١٠]، إنَّك مولى كلِّ خيرٍ ومُوليه، وخافضُ كلِّ شيءٍ ومُعْليه، وليس لما سَخِطْتَه قابل، ولا لرحلٍ حططته حامل.

---

(١) الغوارز: جمع غارز أي قليل اللبن. والأخلاف: جمع خِلف وهو للناقة كالثدي للمرأة، والغزار: جمع غريزة أي كثيرة اللبن.

(٢) المقصية: المبعدة.

(٣) الحفي: المبالغ في الإكرام.

(٤) هي مكة المكرمة التي جاور فيها بيت اللَّه الحرام ولذلك لقب جار اللَّه.

(٥) الدملج: ما يوضع من الحلي في العضد، والسوار في المعصم.

(٦) الجنان: القلب.

(٧) أسلة اللسان: طرفه، وسني قلمي: رأسيه.

(٨) الجنوب: الريح القبلية، والقبول: ريح الصبا.

(٩) «لأنها» عائدة على المقالات التي كتبها الزمخشري في الحرم المكي.

(١٠) المنشئ: الباني، القابس: المستفيد، المقبس: المفيد، الدارس: القارئ.

المقالة الأولى

الذي يخفض المرء

ما يخفض المرءَ عدمُهُ ويُتْمُهُ إذا رفعه دينُهُ وعلمُهُ[١]، ولا يرفعُهُ مالُهُ وأهلُهُ إذا خفضه فجورُهُ وجهلُهُ، العِلمُ هو الأب بل هو للثأي أرأب[٢]، والتقوى هي الأم بل هي إلى اللَّبان[٣] أضمُّ. فاحرز نفسك في حِرزهما واشددْ يديك بِغَرْزِهما[٤] يسقِكَ اللَّه نعمةً صيِّبةً[٥] ويحيك حياةً طيبة.

(١) أي لا يحط من شأن الإنسان كونه يتيماً أو فقيراً إذ العلم والدين يرفعان شأنه.
(٢) للثأي: للمفسد الجاهل، أرأب: أصلح.
(٣) اللَّبان: الصدر.
(٤) أي استمسك بهما.
(٥) صيِّبة: متقاطرة.

المقالة الثانية

أصلك يا ابن آدم

يا ابن آدم أصلك من صلصالٍ كالفخار، وفيك ما لا يسعُك من التِّيه[١] والفَخَار، تارةً بالأب والجَدِّ، وأخرى بالدَّوْلة والجَدِّ. ما أولاك بأن لا تُصعِّرَ خدَّيك ولا تفتخر بجدَّيك. تبصَّرْ خليلي مم مُرَكَّبُك[٢]، وإلامَ منقلبك؟ فخفِّض من غُلَوَائك، وخلِّ بعض خُيَلائك.

(١) التِّيه: الكبر.

(٢) مم مركبك: أي انظر إلى تركيبك أو خلقك مم؟

المقالة الثالثة

عُمرٌ ينقضي

عُمرٌ ينقضي مرَّ الإعصار وأنت ترجوه مدى الأعصار[١]، ضلَّةً لرأيك الفائل[٢] في ظلِّك الزائل. ما هو إلا بياضُ نهارك فَتَغَنَّمْهُ وسواد ليلك فلا تنمه، واتَّبع مَنْ ضرب أكباد المطيِّ[٣] حتى أناخ بِكَنَفٍ وطيّ[٤].

(١) ترجوه مدى الأعصار: أي ترجو أن يمتدَّ عمرك طول القرون.
(٢) ضلَّة لرأيك: كقولهم تباً لك أي ضلَّ رأيك عن الصواب، فائل: ضعيف.
(٣) المطيّ: جمع مطيَّة وهي الدابة، وضرب كبدها: كناية عن الجد في السير.
(٤) الكنف: الحِرْز والسِّتْر، وطيّ: ممهد.

المقالة الرابعة

أُسطوانة وخنزوانة[١]

قدٌّ في طول الأسطوانة، وأنفٌ مُلىءَ من الخُنزُوانة، وعطفٌ ميَّال[٢] وقميص ذيَّال، وشخصٌ لا يشعُرُ أَجَرُّ الإزار مِنَ الأُجور أم مِنَ الأوزار، وإن من أعظم الحُوبِ[٣] فضلَ الذَّيل المسحوب. يا أرعن ومثلَكَ ألْعن، قل لي ويلك: كم تُلحِفُ البطحاء ذيْلك؟ وهي عمَّا قليلٍ تُلحِفُك حصباءَها وتقذفُ عليك أعباءها وتُثْقِلُك فوق ما أثقلتها وتُحمِّلُكَ أضعاف ما حمَّلتها.

(١) الخنزوانة: الكبر والتكبر.

(٢) العطف: الإبط والجانب، ميَّال: كثير الحركة والميلان.

(٣) الحوب: الوزر.

المقالة الخامسة

يا ابن أبي

يا ابن أبي وأمي هات حديث الآباء والأمهات، وحدِّثْ عن رجال العشيرة وكرام الأخِلَّاء والجيرة مِنَ الجار الجُنُب وَمَاس الطُّنُب[١]، وَمَنْ جاثيناه على الرُّكَب[٢]، وجاريناه في كشف الكُرب[٣]، ومن رَفَدَنا بالخير وَرَفَدْناه[٤]، وأفادنا الحكمة وأفدناه، قد اقتضاهم من أوجدهم أن يفنَوْا[٥]، وخَلَتْ عنهم الديار كأن لم يغنوْا، وكفى بمكانهم واعظاً لو صُودِفَ من يتعظ، وموقظاً عن الغفلة لو وُجد من يستيقظ.

(١) الطنب: الوتد أو الحبل الذي يشد به سرادق البيت أي ما يمد فوق صحنه.
(٢) جاثيناه: جالسناه.
(٣) جاريناه: جربنا معه أي أسعفناه، الكُرب: جمع كُربة أي الحزن والشدة.
(٤) الرفد: العطاء.
(٥) اقتضاهم: أخذهم واستوفاهم من أوجدهم من العدم وهو اللَّه سبحانه وتعالى.

المقالة السادسة

دعاؤك وعملك

عملك لِلَّذي عَلِمَ منه في عدمه ما لا تعلمُ أنت وقد وُجد، ودعاؤك لمن هو أخبرُ منك بما أردتَ به ممَّا لم تُرِد. فما هذا الرُّغاءُ كأنه هدير؟ وما هذا الصراخ الذي الأصمُّ به جدير؟ إن كنت ممن يأوي إلى السُّنة دون البدعة ولا يلوي على الرِّياء والسُّمعة، وأردتَ بذلك وجه العليم بما خطر في قلب العبد وَهَجَسَ، الخبير بما وسوستْ به نفسُهُ وأوجس[١]، مِنْ هوى نفسِك العملُ المشهورُ فالكتْمَ الكتْمَ، ومِنْ شهواتهما الدعاءُ المنشور فالختْمَ الختْمَ[٢]، إنَّ خير النُّوق والقِسِيِّ الكتوم[٣]، وخير الكتاب والشراب المختوم.

(١) أوجس: أضمر.

(٢) الكتم ضد الإفشاء والإشاعة وكذا فالختم الختم وهو بمعنى الإخفاء.

(٣) النوق: مفردها ناقة، القسي: مفردها قوس، الكتوم: أي التي لا تصوِّت.

المقالة السابعة

هذا هو التواضع

التوضيعُ كلُّ التوضيعِ أنْ تُشرَّف[١]، والتنكيرُ كلُّ التنكير أن تُعرَّف. فآثر الخمولَ على النباهة، واستحبَّ السَّتْرَ على الوجاهة تعشْ أنجى مِن أظفار المحن[٢] وأنأى عن إضمار الإحن[٣]. وإنَّ ذا الشرف محسود أو حاسد ومحقودٌ عليه أو حاقد، وتلك بليَّةٌ تتقلقلُ تحتها الأحشاء[٤]، ويفعلُ اللَّه فيها ما يشاء.

(١) التوضيع: حط القدر، تشرّف: ترفع.
(٢) المحن: البلايا.
(٣) أنأى: أبعد، الإحن: مفردها إحنة يعني الحقد.
(٤) تتقلقل: تضطرب، الأحشاء: مفردها حش: ما في البطن من قلب وكبد وطحال.

المقالة الثامنة

ما أسعدك!

ما أسعدك لو كنتَ في سلامة الضمير، كسلاسة الماء النمير[١]، وفي النقاءِ عن الرِّيبة كمرآة الغريبة[٢]، وفي نفاذ الطَّيَّة[٣] كصدر الخطَّيَّة[٤]، وفي أخذ الأُهْبَة كالواقع في النُّهْبة[٥]، لكنَّكَ ذو تكدير كرجرجة الغدير، ومتلطِّخٌ بالخبائث كخرقة الطامث[٦]، وذو عجزٍ وتوانٍ ككسالِ الغواني[٧]، وتاركٌ للاستعداد كالشاكِّ في المعاد[٨].

(١) النمير: الزكي الناجع.
(٢) كمرآة الغريبة: أي في النظافة والصفاء.
(٣) نفاذ الطية: أي إمضاء العزم والنية.
(٤) كصدر الخطية: أي السنان الذي في رأس الرِّماح المنسوبة للخط وهو اسم مكان.
(٥) النهبة: المال المنهوب، والواقع في النهبة هو الناهب لأموال الغير بغير الحق.
(٦) خرقة الطامث: أي فرصة الحائض.
(٧) المكسال: متعود الكسل، الغواني: مفردها غانية أي الغنية بجمالها عن الزينة.
(٨) المعاد: البعث.

المقالة التاسعة

الشقي المخذول

ألا أُخبرُك بالشقي المخذول، ذي المال المصون والعرْض المبذول[١]، مَنْ لا يبالي إذا سَلِمَتْ ثروته أن تُمزَّقَ فروتُه، وإذا شبعتْ خزانته أن تجوع خزانتُه، وألا أُخبرُك بالسعيد المنصور ذي الجناب الممطور[٢]، من خالف تلك السُّنة واتخذ المالَ لعرضه جُنَّة[٣]، يقول لخازنه أَنْجِج[٤] ولوازنه أرجح[٥]، ولنفسه إذا جاشت مكانَكِ تحمدي وإذا طاشت وراءَك تصمدي.

(١) المصون: المحفوظ، العرض: ما يصونه الإنسان من حبه وشرفه، المبذول: ضد المصون.
(٢) الممطور: الذي أصابه المطر أي الخير والرحمة.
(٣) جُنة: وقاية.
(٤) أي أنجز ويسِّر.
(٥) أي زد.

المقالة العاشرة

حق المؤاخاة

استمسك بحبل مُؤاخيك ما استمسك بأواخيك[١]، واصبحه ما أصحبَ[٢] للحق وَأَذْعَنَ، وحلَّ مع أشياعه وَظَعَنَ[٣]، فإن تنكَّرَتْ أنحاؤه[٤] ورشح بالباطل إناؤه فتعَوَّضْ من صحبته وإن عُوِّضْتَ الشِّسْع[٥]، واصطرف[٦] بحبله وإن أعطيتَ النَّسْعَ[٧]، فصاحبُ الصِّدقِ أنفعُ من التِّرياق النافع، وقرينُ السُّوءِ أضرُّ من السُّمِّ الناقع.

(١) مؤاخيك: الذي يريدك أخاً له، أواخيك: مفردها آخيَّة وهو عود في حائط أو في حبلٍ يدفن طرفاه في الأرض ويبرز طرفاه كالحلقة تشدَّ فيها الدابة.
(٢) أي رافق.
(٣) ظعن: رحل.
(٤) تنكَّرت أنحاؤه: تغيَّرت حالاته الأولية.
(٥) أي قبال النعل.
(٦) أي تصرَّف في طلب صاحبٍ آخر.
(٧) أي سيرٌ ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال تشدُّ بها الرحال.

المقالة الحادية عشرة

الشهم الحذر

الشهم الحذر بعيد مطارح الفكر[١] غريب مسارح[٢] النظر، لا يرقد ولا يكرى[٣]، إلا وهو يقظان الذِّكرى، يستنبط العظة من اللمح الخفي، ويستجلبُ العبرةَ من الطَّرف القصي[٤]، فإذا نظرتَ إلى بناتِ النَّعشِ فاستجلب عِبرتك، وإذا رأيت بني نعشك فاستجلب عَبرتك[٥]، واعلم أنَّ من الجوائز أنْ تروح غداً على الجنائز.

(١) المطارح: المرامي.
(٢) المسارح: مفردها مسرح أي مكان إرسال النظر يعني التأمل.
(٣) يكرى: ينعس.
(٤) الطرف العين، القصي: البعيد.
(٥) العِبرة: العجب، والعَبرة: الدمعة.

المقالة الثانية عشرة

الماعون والناعون

لا تمنع المعون والماعون[١] حتى ينعاك الناعون، إنَّ مَثَلَ توسِعتِك على أخيك وقد أضاق[٢]، وحقنك ماء وجهه أن يُهراق مَثَلُ العين الغديقة[٣] في حرِّ الوديقة[٤]، ذاك من ذوائب الخير والنواحي، وحقيقٌ أن يطول به التواصي[٥].

(١) المعون: الإعانة، الماعون: المعروف الذي يُنتفعُ به أو يستعار مثل الفأس والقدوم والقدر...

(٢) أضاق: ذهب ماله.

(٣) العين الغديقة: ينبوع الماء الغزير.

(٤) الوديقة: شدَّة الحرّ.

(٥) التواصي: أن يوصي بعضهم بعضاً بذلك.

المقالة الثالثة عشرة

المستجدي

يا أيها المستجدي حسبُك فبئس الكسبُ كسبُك، لا يُخلِقُ الدِّيباجة[١]، مثلُ التعرُّض للحاجة. فليرقع اليسيرُ خصاصتك[٢]، ولتكن القناعةُ خُوَيِّصتك، وأقللْ في الناس طمعك تستدِمْ فضلَ اللَّه معك.

(١) يُخلِقُ: يبلي، الديباجة هنا جلدة الوجه.
(٢) الخصاصة: الفقر.

المقالة الرابعة عشرة

دع الهوينا

خلِّ الوَنَى[١] ودع الهُوَينا، فالأمر مما تتوهم أهمُّ، والخطب مما تقدِّرُ أطمُّ[٢]، داعٍ للموت صيِّتٌ[٣] وحيٌّ لا محالةَ ميِّت، وميِّتٌ منشور[٤] وَخَلْقٌ محشور، وعملٌ محسوب وميزانٌ منصوب، ومجاز قادرٌ وكتاب لا يغادر، وثوابٌ وكلٌّ راجٍ، وعقابٌ وقلَّ الناجي.

(١) خلِّ الونى: خلِّ: اترك ودع، الونى: الفتور.
(٢) أطمّ: أكثر.
(٣) صيِّت: شديد الصوت.
(٤) منشور: إحياؤه بعد موته.

المقالة الخامسة عشرة

الدعة والضعة[١]

الدَّعَةُ مع الضَّعةِ مُرَّة، لا تَشْرَهُ إليها نفسٌ حُرَّة، لكن أخلافُها[٢] مُرْتَضَعَة، بفِي[٣] مَنْ هانتْ عليه الضَّعة، وكم بين مَنْ يستلين مع نيل الشرف مسَّ الشَّظفِ ويستخفُّ لأجل الزُّلَفِ عِبْءَ الكُلَف، سواء عليه الغثاثة والطيِّب وتهلُّلُ وجهِ العيش والتقطيب، ومن هو عبدُ مَقَذَّة همَّتُهُ إصابةُ مُستَلَذِّه، يرضيهِ بطنه إذا شبع ولا يسخطه عرضُهُ إذا سُبع.

(١) الدَّعة والضَّعَة: الدَّعة أي الراحة، والضَّعة أي حطة القدر.
(٢) أي الثدي.
(٣) أي بفم.

المقالة السادسة عشرة

الكريم والضيم[١]

الكريم إذا ريمَ[٢] على الضَّيْم نبا[٣]، والسَّرِيُّ[٤] متى سِيمَ الخسف[٥] أبى. والرَّزين المجتبِي بجماله الحِلْم يَنفِرُ نفرةَ الوحشيِّ عن الظلم، إشفاقاً على ظُفرِه أن يُقلَّم، وعلى ظهره أن يُكلَّم[٦]. وقلَّما عُرِفَتِ الأَنَفَةُ والإباء في غير من شرُفتْ منه الآباء، ولا خير فيمن لم يطب له عِرْقٌ، وَذَنَبُ الكلب به طِرْقٌ[٧].

(١) الضيم: الظلم والاضطهاد.
(٢) أي إذا عرِض.
(٣) نبا: امتنع.
(٤) السَّرِيُّ: الشريف النَّبيه.
(٥) سيم الخسف: أريد به الذل والنقيصة.
(٦) الكلم: الجراحة.
(٧) طِرْق: الشحم، وما به طرق أي ليس به نفع ولا قوة.

المقالة السابعة عشرة

الوجه القبيح

الوجه ذو الوقاحة مِنْ وجوه الرَّقاحة[١] يفيء[٢] على صاحبه الأنفال[٣] ويفتح الأقفال، ويُلقطه الأرطاب[٤] ويُلقِمُهُ ما استطاب، ويجسِّرُه[٥] على قول المِنطيق[٦]، ويُيسِّرُ فعل ما لا يُطيق. وكلُّ ذي وجهٍ حييٍّ ذو لسانٍ عييٍّ، مُعْتَقَلٌ لا ينشَط لمقال، ولا يُنشطُ مِنْ عقال، ولا يزال ضيِّق الذَّرْع[٧] بكِيءَ الضَّرْع[٨]، يشبعُ غيرُه وهو طيَّان[٩] ويعطش هو وصاحبُهُ ريَّان، ولكن لا كان من يتوقَّح لأجل أن يترفَّه وَيَترقَّح[١٠]، فَلَعَمري ما النائلُ الوَتِحُ[١١] إلا ما ناله الوقِح، وأيمُ اللَّه إنَّ الرشحة في الجبينِ أحسنُ مِنَ الشَّمَم[١٢] في العِرْنين[١٣]، ولأَنْ تَفِرَ عِرضَك[١٤] وما في سِقائك جُرعه خيرٌ من أن تملك البحر وما في وجهك مُزعة[١٥].

(١) الرقاحة: الكسب والتجارة.
(٢) يفي: يرجع.
(٣) الأنفال: مفردها نفل أي غنيمة.
(٤) أرطاب: مفردها رطب.
(٥) يجسره: يجعله جسوراً.
(٦) المنطيق: البليغ.
(٧) ضيَّق الذرع: مكدَّر البال.
(٨) أي دامع العينين.
(٩) طيَّان: جوعان.
(١٠) يترقح: يتكسب لعياله.
(١١) الوتح: العطية القليلة والتافه من الشيء.
(١٢) الشَّمم: ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاه، وقوم شم الأنوف أي شرفاء نبهاء.
(١٣) العرنين: أول الأنف وتحت مجتمع الحاجبين.
(١٤) أي تصونه.
(١٥) مُزعة: مثل الجرعة.

المقالة الثامنة عشرة

عزة النفس والموت الأحمر

عزة النفس وبُعدُ الهمة، الموت الأحمر والخطوبُ المدلهمَّة، ولكن من عرف مَنْهَلَ الذُّلِّ فعافه استعذب نقيع العزِّ وزُعافَه[١]، ومن لم يصطلِ بحرِّ الهيجاء[٢] لم يصل إلى بَرْدِ المغنم[٣]، ومن لم يصبر على براثن أُسْدِ اللقاء[٤] لم يُصِب أطرافاً كالعنم[٥]، وتحت علم الملِكِ المطاع ذَكَرُ السيوف والأنطاع[٦]، ومن لم يقضِ عليه عُسرٌ يَقِذُهُ[٧] لم يُقَيَّضْ له يسرٌ يُنقذُه، وما الحكمة الإلٰهية إلّا هي، وهي القاعدةُ التي أُمر عليها العبدُ ونُهي، اليوم عزاءٌ في كُلَفٍ وَكُرَبٍ، وغداً جزاءٌ بزُلفٍ وَقُرَبٍ.

(١) الذُّعاف: السم.
(٢) الهيجاء: الحرب.
(٣) برد المغنم: لذة اغتنام الغنائم.
(٤) الجهد والمشقة.
(٥) أطرافاً: أصابعاً مخضوبة، العنم: الشجر اللين الأغصان يشبه به بنان الجواري.
(٦) الأنطاع: مفردها نطع وهو البساط الذي يبسط للملوك.
(٧) عسر يقذة: بلية تستأصله.

المقالة التاسعة عشرة

الحِمل والحلم

أحملُ الناس لأعبائه أحلمُهُمْ عن أحبَّائه، بل مَنْ عدُوُّهُ إلى حبيبه جنيبٌ لا يلحقُهُ عتابٌ ولا تأنيب، يترك جزاءه على ذنبه ويعرُكُ أذاه بجنبه، ذاك الذي لم يُعِرْه اللَّه قلباً رهيناً بالحقد، ولا أودعه إلا ضميراً صحيح العقد[١]. قطع اللَّه نياط[٢] كلِّ قلبٍ بالشرِّ رهينٍ، يزلُّ[٣] الخير زليلَ الحِبْرِ عن الرِّقِّ الدَّهين[٤].

(١) العقد: العهد.
(٢) النياط: علاقة القلب.
(٣) يزل: يزلق.
(٤) الرق: جلد رقيق يكتب فيه، دهين: مدهون بنحو زيت فلا يثبت الحبر عليه.

المقالة العشرون

المروءة

المروءة خليقةٌ[١] برضا اللَّه خليقة[٢]، والسخاء سجيَّةٌ بحُسن الذكر حجيَّةٌ، ولم أرَ كالدناءة[٣] أحقُّ بالشناءة[٤]، ولا يصلح للإخاء إلا أهلُ السخاء، بهم يُداوَى القلب المريض ويجبرُ العظِمُ المهيض[٥]، وهم يريحون[٦] عليك النِّعَمَ إذا عَزَبَتْ[٧] ويزيحون عنك النِّقم إذا حَزَبَتْ[٨].

(١) المروءة خليقة: المروءة سجية.
(٢) برضا اللَّه خليقة: برضا اللَّه جديرة وَحَرِيَّة.
(٣) الدناءة: الخسة.
(٤) الشناءة: البغض والكراهية.
(٥) يجبر: يصلح، المهيض: المكسور.
(٦) يريحون: يردّون.
(٧) عَزَبَتْ: ذهبت وغابت.
(٨) حَزَبَتْ: نابت واشتدت.

المقالة الحادية والعشرون

أَعتني وأَبتني وأَقتني

لا تنتفع بما لا تني أن تبتني وتقتني، وتعتني بغرس ما لا تجتني، هلمَّ إلى استشارة عقلك فَتَبَصَّرْ، وإلى استخارة ذهنك فتدبَّرْ، وقل لي إذا شقَّ بصرُك واشتدَّ حصرُك، وعاينتَ الجَدَّ فشغَلَك عن دَدِك[١]، وأوحشك تفريطُك فسُقط في يدك، ما يُغني حينئذٍ عنك بُنيانُك! وماذا يُجدي عليك قُنْيَانُك؟ وهل ينفعُك نخيلُك الصنوانُ[٢] وغيرُ الصنوان؟ أم يدفعُ عنك ما يخرُجُ من طلعها من القِنْوان[٣].

(١) الدَّد: اللهو واللعب.

(٢) الصنوان: مفردها صنو، وهو نخلتان أو نخلات في أصلٍ واحد.

(٣) القنوان: مفردها قنو وهو العذق أي العنقود من البلح.

المقالة الثانية والعشرون

الباطل واللَّدد[١]

خلِّ عن يدك الباطلَ واللَّددَ، واعتنقِ الجَدَّ والزم الجَدَدَ[٢]، إنّ اللَّه تعالى خلقك جِدَّاً لا عبثاً، وَفَطَرَكَ إبريزاً لا خَبَثاً، لولاَ أنَّ نفسَك بكسبِها الخبيث خَبَّثَتْك، وبلَطْخ عملها السَّيِّئ لوَّثَتْك، فأرخَيْتَ عِنانك في ما أنت عنه مَزْجور، وتولَّيت بِرُكنك عمَّا أنت عليه مأجور، إلقاءً بيدك إلى التهلكة، وإضاعةً لحظِّك في عظيم المَهلكة.

(١) اللَّدد: الخصومة.

(٢) الجدد: الطريق المستوية.

المقالة الثالثة والعشرون

خسوف وفيلسوف

احذرْ من الخسوف والكسوف، ولا تستمع لقول الفيلسوف لأنه لا يألُو أنْ يتحمَّق، وأنْ يغلوَ ويتعمَّق، إنَّ اشتهارَهُ بقوله الفجِّ[١] طوَّح به وراء كلِّ فجٍ[٢]، مُبَخِّتٌ مُرَجِّمٌ[٣] يدَّعي أنَّه مُنجِّمٌ[٤]، هو عند نفسه المهذَّب وعند عبادِ اللَّه المُكذَّب، وبِنارِ اللَّه المُعذَّب، يزعُمُ أنَّه الكيِّسُ[٥] الذَّكي[٦]، وأَعْقَلُ منه التَّيسُ الذَّكيُّ[٧] ما شئتَ بالمتظاهر بالفلسفةِ مِنْ أنواع الرَّكاكةِ والسفسفة[٨]، وكيف يصلُبُ النَّبعُ[٩] ممَّن إلٰهه الطَّبعُ[١٠]؟ يناديه الكفرُ بمرحباً بك يا صُنيَّ[١١]، ويقول له الشيطان: أفلحتَ يا بُنيَّ.

(١) المقصود غير المستوي وغير المتقن.
(٢) طوّح: قذف، فجّ: الطريق الواسع بين جبلين.
(٣) المبخِّت: المتكهن (البخت والكهانة)، المُرجِّم: الآتي بكلام لا يوقف على حقيقته.
(٤) مُنجِّم: الذي ينظر في النجوم.
(٥) الكيِّس: العاقل.
(٦) الذَّكي: سريع الفطنة.
(٧) المقصود هنا المذبوح.
(٨) الرَّكاكة: الضعف، السفسفة: الرداءة.
(٩) يصلب النبع: يحكم الرأي.
(١٠) إلٰهه الطبع: معبوده الطبيعة.
(١١) صُنيّ: تصغير صنوي أي أخي الشقيق.

المقالة الرابعة والعشرون

نحو قلب سليم

مَنْ لِعملٍ كالظَّهْرِ الدَّبِرِ[١]، ومَنْ لِقلبٍ كالجُرحِ الغَبِرِ[٢]. دُووِيَ[٣] بكلّ دواءٍ فَلَم ينجع، واحتيلَ عليه بكلِّ حيلةٍ فلم ينفعَ، متى رَفَوْتَ[٤] منه جانباً انتقض عليه آخر، وإذا سَدَدْتَ من فساده منخراً جاش[٥] منخر، ضاقتْ عن تدبيره فِطَنُ الأناسيِّ، وأعضلَ علاجُهُ على الطَّبيب النِّطاسِيّ، فيا ويلتا مِنْ هذا السِّقام، ويا غوثنا من هذا الداء العقام، وما أحقَّ بمثلي أنْ يبيتَ بليلةِ سَليم[٦]، كلما تُليتْ إلا من أتى اللَّه بقلبٍ سليم.

(١) الدَّبر: القريح.
(٢) الغبِر: الفاسد.
(٣) دُووِي: ماضٍ مجهول من داواه إذا عالجه بالدواء.
(٤) رفوت: أصلحت.
(٥) جاش: هاج.
(٦) بليلة سليم: أي بليل شخصٍ لدغته أفعى فيبيت خائفاً من الموت.

المقالة الخامسة والعشرون

النفس التَّقية

احْرِصْ وفيك بقيَّة، على أن تكونَ لك نفسٌ تقيَّة، فلن يسعدَ إلا التَّقيّ، وكلُّ من عداهُ فهو شقيٌّ، قبل أنْ ترى الشَّيبَ المُجلِّل[١] والصُّلبَ المُهلِّل[٢] والجِلدَ المُتشنِّنَ[٣] والرأي المُتفنِّن والنَّوْءَ المُتخاذِلَ[٤] والوطءَ المتثاقِل، والرَّثيةَ[٥] في المفاصِلِ ناهضة، والرَّعشةَ للأناملِ نافضةً، وقبل أنْ لا تقدر على ما أنت عليه قادر، ولا تصدُرَ عمَّا أنت عنه صادر.

(١) الشيب المجلل: الشيب الذي يعم ويعلو شعرك.
(٢) الصُّلب المُهلِّل: الظهر المتقوس.
(٣) الجلد المُتشنِّن: الجلد المُتشنج.
(٤) النوء المتخاذل: المشقة والضعف عند النهوض.
(٥) الرثية: وجع المفاصل.

المقالة السادسة والعشرون

منكرات وسكرات

من استوحش المُنكرات استأنس عند السكرات، يتلقَّاه المليك بالملائك[١] مُبشِّرين بالنَّضرة[٢] والنظر إلى الأرائك[٣]، وطوبى لمن سرَّه المعروفُ فاهتزَّ وساءه المُنكرُ فاشمأزّ، وقام بأمر اللَّه في إهانةِ الأشرار وعَصْب سَلِمَتِهِم[٤]، وفي إعانةِ الأبرار ونصب كلمتهم.

(١) المليك: هو اللَّه تعالى، الملائك: مفردها ملاك.
(٢) النضرة: النّعمة والحسن.
(٣) الأرائك: مفردها أريكة أي السرير المنجد.
(٤) السلمة: شجرة ذات شوك وزهر أصفر طيب الرائحة، والمقصود شدد عليهم.

المقالة السابعة والعشرون

النعامة والزَّعامة

أحمقُ من النعامة[١] من افتخر بالزعامة[٢]، لم أرَ أشقى من الزعيم ولا أبعد منه من الفوز بالنعيم، وأنَّى يفوز مَنْ ديدنُهُ[٣] الهتكُ بالأستار[٤]، وهجيراه[٥] الفتكُ بالأحرار، لا يفتُرُ مِنْ إهراعٍ في سُبُل الطغاة ولا يهدأُ مِنْ إهطاعٍ[٦] قبل البُغاة[٧]، هالكٌ في الهوالك، خابطٌ في الظُّلَمِ الحوالك[٨]، على آثاره العفاء، وأدركَتْهُ بمجانِيقها[٩] الضُّعفاء.

(١) أي أقل عقلاً ورأياً من النعامة لأنها تترك بيضها وتحضن بيض غيرها.
(٢) الزعامة: الرئاسة.
(٣) ديدنه: عادته.
(٤) المراد شقه ففضحه وأضاع الحرمة.
(٥) الهجيري: الفتك والقتل والإتلاف.
(٦) الإهطاع: الإسراع مع الخوف.
(٧) البغاة: مفردها باغٍ أي ظالم معتدٍ أثيم.
(٨) الحوالك: مفرداً حالك أيّ شديد السواد.
(٩) المجانيق: مفردها منجنيق وهي آلة حربية قديمة ترمى بها الحجارة أو كتل النار.

المقالة الثامنة والعشرون

المُرائي

المرائي لمقْتِ اللَّه مُراعي، والجهلُ بالدعاء جهلٌ بالداعي، ومن لم يدْعُ في خِفْيَةٍ وخِيفةٍ فذو دعوةٍ سخيفة، وما لم يُرَاعَ أدبُ اللَّه فيه لم يَخَف أنَّ صاحبَهُ استعمل فيه السَّخف، ومن جاء بالدعوة يُخفيها، ويخاف المدعُوَّ فيها، فيا لها مُحكمَةً[١] ذات نِيريْن[٢] مُشرقةً ذات نورين[٣]، قد أخرجتها الخِفيةُ من باب الرِّياء، وأدْخَلَتها الخِيفةُ في باب الاتِّقاء، ولكنَّ الناس عن التحقيق رُقودٌ، والنظر الصحيح بينهم مفقود.

(١) محكمة: مُتقنة.
(٢) المقصود الخفية والخوف.
(٣) المقصود الإخلاص والإتقان.

المقالة التاسعة والعشرون

إلى المسجد

لِتكُنْ مَشيتُكَ إلى المسجد أوقَرَ مِشيةٍ، ولتكُنْ خشيتُكَ في الصلاة أوفر خشيةٍ، واذكُرْ عِزَّةَ[١] الملكِ العزيز، ولا تنسَ ما جاء من حديث الأزيز[٢]، وانظر بين يديْ أيِّ جبارٍ أنت ماثلٌ، ولأيِّ مكَّارٍ[٣] أنت مُقاتل، لعمرُك ما رتب رُتُوبَ الكعب[٤] في مثل هذا الموضِعِ الصعب، إلَّا عبدٌ حرُّ المَنابِتِ[٥]، مُثبتٌ بالقول الثابت، أوَّاه من خوف العَقاب أوَّاب[٦]، توابٌ إلى نيل الثواب وثَّاب، ركَّاضٌ[٧] خيلَهُ في حلبات الطاعة، رواضٌ[٨] نفسَهُ على بذل الاستطاعة.

(١) العزة: الغلبة وهي ضدّ الذل.

(٢) هو الحديث الذي رواه عبد اللَّه بن الشِّخير رضي اللَّه عنه قال: «أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء». رواه أبو داود والترمذي. والمرجل قدر من نحاس أو حجر.

(٣) مكَّار: كثير المكر والحيلة.

(٤) رتب: ثبت، الكعب: العظم الناشر فوق القدم.

(٥) أي عظيم الأصل كريمه.

(٦) أوّاب: دائم الرجوع والعودة إلى اللَّه.

(٧) ركَّاض: كثير الركض.

(٨) روَّاض: كثير الرياضة، والمقصود أنه يعوِّد نفسه ويهذبها على الإطاقة.

المقالة الثلاثون

الدنيا أدوار

الدنيا أدوار[١]، والناس أطوار[٢]، فالبس كلَّ يوم بحسب ما فيه من الطوارق[٣]، وجالس كلَّ قوم بقدر ما لهم من الطرائِق[٤]، فلن تجريَ الأيامُ على أُمنيتِك، ولن تنزل الأقوام على قضيَّتِك[٥]، ولن تُشايعَك الدنيا إلى ما تروم[٦]، وإنْ ساعَدَتْك فمساعدتُها لا تدوم.

(١) أدوار: مفردها دور وهي بمعنى الإقبال والإدبار.
(٢) أطوار: التارات والأحوال أي أجناس.
(٣) الطوارق: النوازل.
(٤) الطرائق: المذاهب والخصال.
(٥) فضيتك: حكمك.
(٦) تروم: تطلب.

المقالة الحادية والثلاثون

عندما يأمن القلب

قلبُك آمنٌ، وجأشُك متطامنٌ[١]، ورأيُك في الشهوات باترٌ[٢]، وشوقُك إلى ما عند اللَّه فاترٌ[٣]، وأنت مُترفِّهٌ مُترفٌ، أَطْيَبُ قِطْفٍ لك مُخْتَرَفٌ[٤]، في أكناف[٥] السَّعَةِ راتعٌ[٦]، ولأخلاف[٧] الدَّعةِ راضعٌ، وفي تيه الغفلاتِ هائمٌ، كأنَّك إحدى البهائم، ما هذا خُلُقُ المؤمن، ولا هكذا صفة الموقن، المؤمن راهبٌ راغب[٨]، ساغبٌ لاغبٌ[٩]، ذو هيئةٍ بِذَّةٍ[١٠]، محتمٌ من كلِّ لذَّةٍ، إن رأى من نفسه جِماحاً أَلَجَمَ وحَجَرْ[١١]، وإن أحسَّ منها مطمعاً ألقمها الحَجَرْ.

(١) متطامن: مطمئن وساكن.
(٢) باتر: قاطع.
(٣) فاتر: ضعيف ساكن.
(٤) القطف: العنقود والثمر المقطوف، مُختَرَقٌ: مجتن.
(٥) أكناف: الجوانب والنواحي والظلال.
(٦) راتع: متوسع في الخصب والمآكل الطيبة.
(٧) الأخلاف للنوق كالثدي للنساء.
(٨) راهب: خائف، راغب: مريد.
(٩) ساغب: جائع، لاغب: متعب.
(١٠) بذَّة: رثَّة.
(١١) الجماح: التمرد: ألجم وحجر: منع.

المقالة الثانية والثلاثون

بلد الوالي الغشوم

ألا أُحدِّثُك عن بلد الشُّوم ذلك بلدُ الوالي الغشُوم[١]، الغشمُ أَدْوَسُ[٢] من حَوَافِرِ الخيول، وأَحْطَمُ مِنْ جواحِفِ السُّيول[٣]، وأعفى من الرِّياح البوارح[٤]، وأضرُّ من السنينَ الجوائح[٥]، يحجُبُ أن تصعدَ كلماتُ الدُّعاء، وأن تهبطَ بركاتُ السماء، فإيَّاك وبلدَ الجَوْر وإن كنتَ أعزَّ من بيضةِ البلد[٦]، وأحظى أهله بالمال المُثمر والولد، وتوقَّعْ أن تسقط فيه الطيور النواعق، وتأخذَ أهلَه الرجفةُ والصواعقُ.

(١) الغشوم: الظالم.
(٢) الغشم: الظلم، ألودس: الوطء بالرجل.
(٣) جواحف السُّيول: المياه الطاغية الجارفة.
(٤) البوارح: الحارة في الصيف.
(٥) السنين: أوقات الجدب والشدة، الجوائح: مفردها جائحة وهي الشدة التي لا تبقي ولا تذر من الأموال والزروع والحيوان.
(٦) بيضة البلد سعيد البلد الذي يجتمع عليه ويعول عليه.

المقالة الثالثة والثلاثون

يا عبد الدينار

يا عبد الدِّينار والدِّرهم متى أنت عتيقهما، ويا أسير الحرص والطَّمع متى أنت طليقهما، هيهات لا عَتَاقَ إلا أن تكاتِبَ على دينك المُمرَّق، ولا إطلاقَ أو تُفاديَ بخيرك المُلزَّق، يا من يشبعُهُ القُرْصُ[١]، ما هذا الحِرصُ؟ ويا من تُرويه الجُرَعُ[٢] ما هذا الجَزَع؟ ستعلم غداً إذا تندَّمْتَ أن ليس لك إلا ما قدَّمت، وإذا لعِيتَ المنون لم ينفعك مالٌ ولا بنون، ما يَصنعُ بالقناطير المقنطرةِ[٣] عابرُ هذه القنطرة[٤]؟ وما يريدُ البهجةَ والفرحةَ نازلُ ظلِّ هذه السَّرْحَةِ[٥]؟

(١) القُرص: الرغيف.
(٢) الجُرع: مفردها جرعة وهي الحسوة.
(٣) القناطير: مفردها قنطار وهو مائة رطل من ذهب أو فضة، المقنطرة: المكملة.
(٤) القنطرة: الجسر فوق النهر والمقصود هنا الدنيا.
(٥) السَّرْحة: الشجرة العظيمة أي مدة الدنيا كظلِّ الشجرة الزائل.

المقالة الرابعة والثلاثون

الشرف

لا تقنعْ بالشَّرف التَّالد، وهو الشَّرف للوالد، واضمُمْ إلى التالدِ طريفاً[١] حتى تكون بهما شريفاً، ولا تُدْلِ بشرف أبيك، ما لم تُدْلِ بشرفٍ فيك، إن مجدَ الأب ليس بمُجدٍ[٢]، إذا كنتَ في نفسك غير ذي مُجدٍ، الفرقُ بين شَرَفَيْ أبيك ونفسِكَ كالفرقِ بين رِزْقَيْ يومك وأمسِك، ورِزقُ الأمسِ لا يسُدُّ اليوم كَبَداً ولن يَسُدَّها أبداً.

(١) طريفاً: جديداً مكتسباً.

(٢) مُجدٍ: نافع.

المقالة الخامسة والثلاثون

هذا العبد الظالم

للَّه عبدٌ أنفُهُ إلى طاعة اللَّه مخزوم[١]، وقولُهُ بالتوكُّلِ عليه محزوم[٢] لا يقرعُ طُنْبُوبَهُ إلى غير قِبابه[٣]، ولا يُقعْقِعُ[٤] إلا حلقةَ بابه، ولا يزلُّ ظُفراً عن عتبتِه، فَرَقاً من تَوَجُّهِ مَعْتَبتِهِ، مُكمِّشٌ[٥] أذياله مُشمِّرٌ، ماثلٌ مُمتثلٌ حيث أُمر لمَّا أُمر.

(١) أي أنفه مثقوب.
(٢) الحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة.
(٣) الطنبوب: مقدّم عظم الساق ويقال: قرع طنبوبه لكذا إذا أسرع وجدَّ فيه، قبابة مفردها قبة.
(٤) يقعقع: يحرك ويصوت.
(٥) مكمش: مشمر.

المقالة السادسة والثلاثون

ويلٌ لأهل الفخر

كبَّ اللَّه على مناخره مَنْ زكّى نفسه بمفاخره، على أنه رُبَّ مَسَاخر، يَعُدُّها الناسُ مفاخر، يقول الرجلُ جَدِّي فلان وأنا مِمَّن يُقدِّمُهُ السلطان وأبوه عبدٌ لبعض العصاةِ مُسَخَّرٌ، وَمَنْ قدَّمَهُ السلطانُ فهو المُؤخَّر(١)، الأصيلُ مَنْ رَسَخَ في ثرى الطاعة عِراقُه، والمُقدَّمُ مَنْ أحرز قَصَبَ السَّبق سَبْقُهُ.

(١) مؤخر عند اللَّه يوم القيامة والمقدم عند اللَّه من كل من أهل الطاعة والتقوى.

المقالة السابعة والثلاثون

الرواية عن فلان وفلان

إمشِ في دِينِك تحت راية السلطان[١]، ولا تقنع بالرواية عن فلانٍ وفلان، فما الأسد المُحتجبُ في عرينه أعزُّ من الرجُل المُحتج[٢] على قرينه، وما العنز الجرباء تحت الشَّمْأَل البليل[٣] أذلُّ من المُقلِّد عند صاحب الدليل، ومن تَبِعَ في أصول الدِّين تقليدَه فقد ضيَّع وراء الباب المُرْتج إقليدَه[٤]، وجامعُ الروايات الكثيرة ولا حجَّة عنده، مُقْوٍ أوقَرَ ظهرَه بالحطب وأغفَلَ زنْدَه[٥]، إن كان للضَّلال أُمٌّ فالتقليدُ أُمُّهُ، قلَّد اللَّه حبلاً من مسدٍ[٦] من يقصدُهُ وَيَؤُمُّه.

(١) السلطان: الحجة.
(٢) المحتج: الآتي بالحجة.
(٣) الشمأل: ريح تخالف الجنوب باردة، البليل: الندية.
(٤) الإقليد: المفتاح.
(٥) المقوي: النازل في قعر الأرض، أوقر ظهره: أثقله بالحمل، الزند: ما يستخرج منه النار.
(٦) مسد: ليف.

المقالة الثامنة والثلاثون

الحق والبرهان

لم أرَ فرسي رِهانٍ[١] مثل الحقّ والبرهان، للَّه درُّهُما مُتخاصِرَيْن، ولا عدمْتُهُما من مُتناصِرَيْن، اصطحبا غير مُبانَيْنِ[٢] اصطحاب أبانَيْنِ[٣]، من شدَّ يده بغرزهما فقد اعتزَّ بعزِّهما، ومن زلَّ عنهما فهو من الذِّلَّةِ أذلُّ ومن القلَّةِ أقلّ.

(١) الرهان: المسابقة.
(٢) مُبانين: مفرقين.
(٣) أبانين: جبلين.

المقالة التاسعة والثلاثون

الساهي واللاهي

أيها الشيخ الشَّيْبُ ناهيك به ناهياً[١] فما لي أراك ساهياً لاهياً؟ أبقِ على نفسك واربع فهذه أُخرى المراحل الأربع[٢]، ومن بلغ رابعةَ المراحل فقد بلغ مِنَ الحياة الساحل[٣]، وما بعدَها إلا المورِدُ الذي ليس لأحدٍ عنه مصدر، ولا زيدٌ مِنْ عمرو بوُرُودِهِ أجدر هو لعمر اللَّه مَشْرَعٌ جميع الناس فيه شَرَعٌ، وأحقُّهُمْ بالاستعداد مَنْ شارفَهُ وأولاهم بالإشفاق له من قارَفَهُ[٤].

(١) ناهيك به ناهياً: حسبك هو مانعاً عمَّا لا يليق بك.
(٢) أي المراحل الأربع في حياة الإنسان (الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة).
(٣) الساحل: الشاطئ.
(٤) قارفه: قاربه.

المقالة الأربعون

القاضي المرتشي

القاضي تعملُ فيه الرِّشوة[١] ما لا تعمل في الشارب النشوة، إنْ أتته فسكرانُ مَيْلاً وطَرَباً، وإنْ فاتته فَثَكْلانُ[٢] ويلاً وَحَرْباً[٣] كأن لم يسمع أنَّ الرَّشوةَ مِنَ السُّحْت[٤]، وأنَّ السُّحْتَ مأخوذ من السُّحْت[٥]، وأنَّ آكِلَهُ ممَّن يسحتُهُ اللَّه بمُثَلاته[٦]، ومن جُملةِ من ينحتُ اللَّه أثلاتِهِ[٧]، أيَّةَ نارٍ يُؤرّث[٨] حين يَقسِم ويُوَرِّث؟ يُقدِّم نصيبَهُ ونصيبَ مَنْ نَصَبَهُ على حقوق ذوي الفرضِ والعصبة، يُسمَّى القاضي وهو السُّمُّ القاضي[٩].

(١) هذا القاضي المرتشي (قاضي في النار) لا الملتزم بشرع اللَّه (قاضٍ في الجنة).
(٢) الثكلان: الفاقد للحبيب أو الولد.
(٣) ويلاً وحرباً: تفجعاً وتحسراً.
(٤) السحت: ما خبُث من المكاسب فلزم عنه العار.
(٥) المقصود هنا الإهلاك والاستئصال ومنه قوله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾.
(٦) أي بعقوبات أمثاله ومفردها مثلة كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.
(٧) أثلات: مفردها أثلة وهي شجرة.
(٨) أي يوقد.
(٩) أي القاتل.

المقالة الحادية والأربعون

الفرائض والجهاد

في إقامة فرائض اللَّه فجاهد، وعلى سنن الرسول فعاهد. ولا يلفتنَّك أن الفرائض لها الفضلُ عند التفاضل، ولها الخَصْلُ يوم التَّناضُل عن أن تكون مُعتدَّاً بالسُّنن، مُعتقداً أنها من الجُنن[١]، مُتنسكاً[٢] بالآداب، مُتمسكاً منها بالأهداب، مُتمادياً في أخذها، مُتفادياً عن نبذها، فكلُّ مُوقَّرٍ مُبجَّل[٣]، وإن كان الأغرُّ[٤] دونه المُحجَّل[٥]، ومن اقْتَحَمَتْ عينُهُ الأدبَ وحقَّرَه لم تكن السُّنَّةُ عنده مُوقَّرةَ، ومن لم يوقِّر السُّنَّةَ ولم يجِلَّها لم يعرف قدر الفريضة ولا محلَّها.

(١) الجُنن: أي الجنون.
(٢) مُتنكساً: متأدباً.
(٣) مُبجَّل: معظَّم.
(٤) الأغر: الفرس الذي في جبهته بياض.
(٥) المحجل: المبيض القوائم من الأفراس.

المقالة الثانية والأربعون

العلماء وأنواعهم

رضيَ اللَّه عن العلماء الخاشين[١] من اللَّه وحسابه، الماشين على سبيل محمدٍ ﷺ وأصحابه، المتواصين بالحق قلَّما يَحيصون[٢] عن فجِّه الرَّحْبِ[٣] إلى ثنيَّات[٤] المضايق، ولا يحيدون عن نهجه اللَّحْبِ[٥] إلى بُنيَّات الطرائق، في أفواههم بيضٌ بواترُ[٦] على رقاب المبطلين، وفي أيديهم سُمْرٌ عَوَاتِرُ[٧] في نغر المُعطِّلين، جمعوا إلى الدِّين الحنيفيِّ العلمَ الحنفيَّ، وإلى العلم الحنفِيِّ الحلمَ الأحنفيَّ[٨]، فنفوسُهُمْ رواسي الحِلم، وقلوبُهم معادنُ العلم. للَّه بلادُها من جبال وَقَار بحاثُ[٩] معادنها يرجع بأوقار[١٠]. لعمرُك ما عُمَّارُ ساحةِ الأرض إلا عمَّالها بالسُّنَّة والفرض، أولئك العلماء حقُّ العلماء، وسائرُهُم كالغُثاء[١١] يطفو على الماء، فلا تُسَمِّهِمْ إلا بالحَمَلِة والرُّوَاة، وادعهم زَوَامِلَ[١٢] الكتاب والدَّواة.

(١) الخاشين: الخائفين.
(٢) يحيصون: لا يعدلون.
(٣) فجه الرحب: طريقه الواسع.
(٤) ثنيَّات: مفردها ثنيَّة أي المنعطف.
(٥) نهجه اللحب: سبيله الواضح.
(٦) بيض بواتر: سيوف قواطع (يريد ألسنتهم).
(٧) سمر عواتر: رماح مضطربة.
(٨) الحلم الأحنفي: أي حلم الأحنف بن قيس.
(٩) بحاث: مفتش.
(١٠) بأوقار: بأحمال نفيسة من العلوم والحكم.
(١١) الغثاء: زبد السيل.
(١٢) زوامل: يقال زمل الشيء أي حمله، والزاملة هي الناقة التي يحمل عليها.

المقالة الثالثة والأربعون

علماء السوء

ما لعُلماء السُّوء جمعوا عزائمَ الشَّرع ودوَّنوها، ثم رخَّصوا فيها لأمراء السُّوءِ وهوَّنوها، ليتَهُم إذ لم يَرْعَوْا شروطها لم يعُوها، وإذ لم يُسمِعوها كما هي لم يَسمَعوها، إنما حفظوا وَعَلَّقوا وصفَّقُوا وحلَّقُوا[١] ليقمُرُوا المال وَيَيْسِرُوا، ويفقِروا الأيتام وَيُوسِرُوا، إنما أنْشَبُوا أظفارَهم في نَشَبٍ فمن يُخَلِّص، وإن قالوا: لا نفعل أَوْ يُزاد كذا فمن يُنقِّص، دراريعُ ختّالَة[٢] مِلْؤها ذراريحُ[٣] قتَّالة، وأكمامٌ واسعةٌ فيها أصلالٌ لا سِعَةٌ[٤]، وأقلامٌ كأنَّها أزلامٌ[٥] وفتوى يعمل بها الجاهل فَيَتْوَى[٦]، فإن وازَنْتَ بين هؤلاءِ والشُّرَط وَجَدْتَ الشُّرَط أبعد من الشَّطط حيث لم يطلبوا بالدين الدنيا، ولم يثيروا الفتنةَ بالفُتيا[٧].

(١) أي إنما حفظوا العلم وعلَّقوا ألفاظه وصفَّقوا في دروسهم وجمعوا حولهم الناس في الحلقات ليأخذوا أموال الناس بالباطل.

(٢) دراريع: الثياب من الصوف، ختَّالة: خدَّاعة.

(٣) ذراريح: مفردها ذُرَّاح وهو ذباب أحمر منقط بسواد وهو قاتل إذا جفِّف وسُحق استعمل في الطب.

(٤) أصلالٌ لاسعة: حياتٌ لاذعة.

(٥) الأزلام: مفردها زلم وهي عيدان يستقسمون بها في الجاهلة لمعرفة الخير من الشر والربح من الخسارة ومثلها خط الرمل والحساب بالمسبحة.

(٦) فيتوى: فيهلك.

(٧) يقصد الزمخشري ذاك النوع من العلماء الذين يبيعون دينهم بعرضٍ من الدنيا فَضَلُّوا وأَضَلُّوا. ثم لا يجدون يوم القيامة ريح الجنة.

المقالة الرابعة والأربعون

اتقاء الكبائر

هَبْ أنّك اتّقيتَ الكبائر التي نُصَّتْ، وتجنَّبتَ العظائمَ التي قُصَّتْ، ورُضْتَ[١] نفسَك مع الرّائضين على أن لا تخوض مع الخائضين[٢]، فما قولُك في هَنَاتٍ[٣] تُوجد منك وأنت ذاهل، وفي هفواتٍ تصدُرُ عنك وأنت غافل، ولعلَّك مُمَرَّقُ الشّلْوِ مأكول وإلى المؤاخذة باقترافها موكول، فَمَثَلُك مَثَلُ الرِّيبال[٤] في محاماته عن الأشبال، يَصُدُّ عن التَّصدي لها البطل الحميس[٥]، بل يرُدُّ عن مرابضها الخميس[٦]، ثم يصبحُ أبو الشبْل، والنَّملُ إلى ابنه كالحبل، وهي بأوصاله مُطيفة[٧] كأنما كَسَتْهُ قطيفة، فما أغنى عنه ذيادُهُ[٨] حتى تمَّ للنمل كِيادُهُ[٩].

(١) رُضت نفسك: كلَّفتها الرياضة.
(٢) الخائضون: الذين يخوضون في ارتكاب الذنوب.
(٣) هنات: خصال سيئة.
(٤) الريبال: الأسد.
(٥) الحميس: الشجاع.
(٦) الخميس: الجيش وقد سمي كذلك لأنهم كانوا يقسمونه إلى خمس فرق: المقدّمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة.
(٧) مطيفة: محيطة لاصقة.
(٨) زياده: مدافعته وحمايته.
(٩) كياده: حيلته.

المقالة الخامسة والأربعون

حزناً على التفريط

من لم يحفظ ما بين فكَّيه ظلَّ يُقلِّب كفَّيْه، وبات يتململُ على دفَّيْه[١] حُزناً على ما فرَّطَ فيه مِنَ التحفظ[٢]، وأسفاً على ما فرَّط منه من التلفظ، ولو كان اللسان مخزوناً[٣] لم يكن الفؤاد محزوناً، وقلَّما يحرُسُ مُهجته[٤] من لا يُخرس لهجته، ولن تجد على السرِّ أميناً إلا من كان بكلِّ أمانةٍ قميناً[٥].

(١) دفَّيه: جنبيه.
(٢) التحفظ: الحزم والاحتياط.
(٣) مخزوناً: ساكتاً.
(٤) مهجته: حياته.
(٥) القمين: الخليق أو الجدير.

المقالة السادسة والأربعون

أمر اللَّه للروح الأمين

أمر اللَّهُ الروحَ الأمين أن يضجَّ مع الملائكة بآمين إذا دعا المتقي لأخيه بظهر الغيب عن نصوع القلب ونصوح الحبيب، على أنَّ الأُخوةَ في اللَّه يستوي فيها المحضَرُ والمَغيب، ولا يختلفُ في مُراعاتها البعيد والقريب، وذلك لأنَّ المعنيَّ فيها واحدٌ وإن اختلفتْ بصاحبها الأحوال وتصرَّفَ به الحَلُّ والترحال، وهو القصد بها إلى وجهِ اللَّهِ الكريم، والإعراضُ عن كلِّ عِرْضٍ لئيم.

المقالة السابعة والأربعون

الحازم

الحازم من لم يزل على جدِّه لم يزل عنه إلى ضدَّه، وذو الرأي الجزل من ليس في شيء من الهزل، وكيف يكون حازماً من هو مازح؟ هيهات البُوْنُ بينهما نازح، وكفاك أن المزح مقلوبُ الحزم، كما أنَّ الحزم مقلوب المزح. رُبَّ كلمةٍ غمستْك في الذنوب، وأفرغتْ على أخيك مِلَء الذُّنوب، فإن كان حُرَّاً زرعْتَ الغِمْرَ في سُوَيْدَائه، وإن كان عبداً نَزَعْتَ المهابة من أحشائه، وتقولُ إنها مُزاحة، وعليك في أن تقولها مُزاحة. ويحَكَ يا تِلعَابةُ[١] لو علمتَ ما في الدُّعابة[٢] لأطعت في اطِّراحها نُهاتَك[٣]، ولمَّا غرْغرْتَ بها لهاتَك، أَسَرَّكَ أن داعبتَ الرَّجُلَ فضحك ولم تشعر أنه بذلك فضحك؟ حيث أعلمَ لو فطِنْتَ لإعلامه أنك الشيخُ المضحوكُ من كلامه، وذلك ما ليس به خفاء، أنه من صفاتِ السخفاء.

(١) تلعابة: يا كثير اللعب.
(٢) الدُّعابة: المقصود بها هنا الملاعبة.
(٣) نُهاتَك: أصحاب النهي.

المقالة الثامنة والأربعون

بين الجد والتشمير

الجِدُّ في الأمور والتشمير، وإنضاج الرأي والتخمير[١]، وترك الهوادة والإدهان[٢]، والضبطُ البليغ مع الاتقان، والسعيُ المُنكمشُ عند استكفاء المهِم[٣]، والخَطْوُ الوَسَاعُ[٤] دون استدفاع المُلم[٥]، حلبةٌ لا يبلغُ مداها إلا ابنُ إحداها، من كان سديدَ الشِّيمةِ شديد الشكيمة، يتجلَّدُ على عِلَّاته والبليدُ يتعلَّلُ[٦]، ويخوضُ أحشاء الحوادثِ والنَّكِدُ يتسلَّل.

(١) التخمير: وضع الخميرة في العجين والمقصود به هنا التبصر والنظر في الأمور.
(٢) الهوادة: اللبن، والإدهان: النفاق والخداع.
(٣) أي طلب كفاية الأمور.
(٤) الوساع: الواسع الفسيح.
(٥) استدفاع الملم: طلب دفع النازلة والمصيبة.
(٦) علاته: موانعه، يتعلل: يتسامح.

المقالة التاسعة والأربعون

الاضطراب في النهار

مِنَ الناسِ من هو مضطربُ النهار في المعاش، مُنبطحُ الليل على الفِراش، على ذلك طَوَى بيضَهُ وسودَه[١] حتى أقْحَلَتِ السُّنُون عُودَه[٢]، ذلك همُّهُ وَسَدَمُهُ[٣] ليس إلَّا، إن حُدِّثَ بغيره قال: كلا، حياةٌ طويلة ولا طائل، وَجَانٍ مطلوب بطوائل[٤]، فيا ويْلَهُ وعولَه إذا رأى المُطَّلَعَ وهولَه[٥].

(١) أي أفنى أيامه ولياليه.
(٢) أقحلت: أيبست، وعوده أي شجرة حياته.
(٣) سدمه: ندامته.
(٤) أي وهو جَانٍ بجنايات أهمُّها ترك الواجبات.
(٥) الهول: الخوف والفزع.

المقالة الخمسون

بلاد اللَّه، خلق اللَّه

للَّه بلادُ عبدٍ مكِّيّ، ذي مُنتسَبٍ زكيٍّ قام عند مطلع سُهيل[١] قبل أن يتقوَّض خِباءُ الليل، فَذَكَرَ اللَّهَ تعالى وَوَحَّدَه، وأثنى عليه ومجَّدَه، وصلَّى على النبيِّ وسَلَّم، وطاف بالبيت الحرام واستلم، واعتنق المُستجارَ والمُلتَزَم[٢]، وتيمَّنَ بالمقام وزمزم، وأتى الحطيمَ فدعا تحت الميزاب[٣]، ثمَّ تنحَّى فأقبل على الأحزاب[٤]، فصفَّ قدميه في يمين الحِجر إلى أن طَلَعَ مُستطيرُ الفجر[٥].

(١) مطلع سهيل: نجم يطلع وقت السحر.
(٢) الملتزم: هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة.
(٣) الحطيم: هو حجر إسماعيل عليه السلام وهو الموضع بين زمزم ومقام إبراهيم والكعبة، الميزاب: الرحمة على سطح الكعبة (المزراب).
(٤) أي المجتمعون هناك من أجل العبادة.
(٥) مستطير الفجر: ما انتشر من شفقه وضوئه.

المقالة الحادية والخمسون

دعاء ودمعة

رُبَّ دُعاءٍ ودمعةٍ من أجل رياءٍ وسُمعة، فلا يَزْدَهِينَّك[١] كلُّ داعٍ دامع العين، ولا تغترَّ إذا سمعتَ بسُرَى القَيْنِ[٢]، ولا تثق فالدينُ خالٍ عن ثقاته، وأين من يتَّقِ اللَّه حق تقاته؟ واعلم أنَّ أكثر الأمور مُموَّهٌ[٣]، ظاهرُه جميلٌ وباطنُهُ مشوَّه، فاستعذ باللَّه من شر ما أنتَ راءٍ فإن الدنيا كلَّ يومٍ إلى وراء.

(١) يزدهينَّك: يعجبنَّك.

(٢) هذا مثلٌ من أمثال العرب، وأصله أن الحداد يقيم عند قوم أياماً ثم يقول إني راحل عنكم الليلة يريد استعجالهم لعمله ثم يبقى فقالوا: (إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصيح).

(٣) مموَّه: أي مطلي أو مزخرف أو مشوه.

المقالة الثانية والخمسون

أيها الملك

أيها الملك لا يغرَّنَّك الأعلام المنصورة، والأعناق إليك مصُورَة، والخيول التي خَلْفَكَ وأمامك تَجِفُ، وأحشاء مَنْ حولك من خوفك ترتجف، والأوامر المُطاعة، والأمور المستطاعة، وأنَّك مُستقِلٌّ لكثيرها، ولا تنسَ أنَّ فوقَكَ أميراً عظيماً أَمْرُكَ هذا إليه أُمَيْرٌ[1]. وآمراً ناهياً أمرُك ونهيُك لديه نُهَيٌّ وأُمَيْرٌ[2]، وأنَّ أقلَّ ما يلزمُك أن تهابه كما يهابُك أدنى عبد لك، وأن لا ينفكَّ مُعَفَّرَيْنِ خضوعاً لعزة سلطانه خدَّاك، وأن يصُدَّك عن بعض كِبْرك كبرياؤه، وتعلم أن لا مشيئة لك والأمر كلُّه ما يشاؤه.

(١) تصغير أمر بمعنى شأن.

(٢) تصغير أمر بمعنى طلب وحكم.

المقالة الثالثة والخمسون

الثقة بالطبيب

ثقتُك بقول الطبيب مرضٌ أشدُّ من مرضك، وأبعدُ لك في الانتهاء إلى غَرَضك، فإن مرضتَ فابدأ بصبرك، وثنِّ بالشكر على حُلْوِك ومُرِّك، فإن استعزَّ بك الوَصَبُ[١] واستفرَّك النَّصب[٢]، فارفع يديك إلى من يُداويك، ولا يُداويك إلا من يُدْويك، وإنما يشفيك التَّحنِّي له والخشوع، ليس يُوحنَّا[٣] وبختيشوع[٤]، ما الطبيب إلا تابعُ تجرِبته وبائعُ ما في أجرِبته[٥]، وربما أدْبَرَتْ بك تدابيره، وعقرتك[٦] عقاقيره، فدعِ الأطباءَ غير الألبَّاء[٧] فأكثرهم إما عبدُ الطبيعةِ وإما عابدُ البيعة[٨].

(١) الوصب: المرض.
(٢) النصب: الهمّ.
(٣) يوحنا بن ماسويه من مشاهير أطباء الخليفة هارون الرشيد.
(٤) بختيشوع بن جبرائيل من مشاهير أطباء الخليفة هارون الرشيد.
(٥) أجربه: مفردها جراب وهي المزاود (أوعية العقاقير).
(٦) عقرتل: جرحتك.
(٧) الألبَّاء: مفردها لبيب.
(٨) البيعة: معبد النصارى.

المقالة الرابعة والخمسون

مِلْ عن القسوط

مِلْ عن القُسُوطِ مع الإقساط[١]، وعليك من الأمور بالأوساط، ودع الغُلُوَّ والتقصير إلى القصد، وقدِّرْ تقديرَ داودَ في السَّرْد[٢]، وتكلَّفْ من الطاعة ما دون الاستطاعة، فمن أولاها الطاقةَ كُلَّها أوشك أن يَمَلَّها، وادعُ نفسَك النَّقَرَى، لا ترجع القهقرى، فَلأن تترك فيها بقيةً خير من أن تجدها بطِيَّةً، ولا تنسَ حظَّها من الجَمَام، فذلك سببُ التمام والسلام.

(١) القسوط: الجور والظلم، الإقساط: العدل.

(٢) السرد: النسج وقد اشتهر نبي اللَّه داود عليه السلام بسرد الدروع وورد هذا المعنى في سورة سبأ.

المقالة الخامسة والخمسون

المطيق والمنطيق

رُبَّ مطيقٍ يودُّ غداً لو لم يكن بمُطيق، ومِنطيقٍ[١] يقول ليتني كنتُ غير مِنطيق، وقد يجوز على الصراط من هو مُفحَم، والمُفَوَّهُ في كَبَّةِ النار مُقحَم، وما يدريك لعلَّ باقلاً وائلٌ[٢]، ويُسحبُ على وجهه سُحبانُ وائل[٣]، فلا تغبطنَّ الخطيب المُشقَقَ فلعل تشقيقَ الحطب كان خيراً له من تشقيقِ الخُطب، ولا الشاعرَ المُغلق في قصائده، فقد سمعت ما جاء في اللسان وحصائدِه.

(١) المنطيق: البليغ.

(٢) باقل بن عمرو بن ثعلبة الأيادي كان يضرب به المثل في العي فيقال أعيى من باقل، ووائل بمعنى الناجي.

(٣) سحبان هو الخطيب المفوَّه ووائل اسم قبيلته.

المقالة السادسة والخمسون

الجنون فنون، والفنون جنون

الجنون فنون والفنون جنون، وحسبُك فنٌّ فذٌ هو في أداء طاعتك أداتُك، وحظُّك الذي تستوي عليه عباداتُك، وما عداه بحسنه رائق لولا أنه عائق، وإليه القلبُ نازع إلا أنه وازع، وإنَّ فنَّاً من العلم أنت به جاهل خيرٌ من علم أنت عن العمل به ذاهل، وكأيِّنْ من فنٍّ يُغنِمُ كلَّ فيء وليس هو من الآخِرة في شيء.

المقالة السابعة والخمسون

هذا هو الشخص الصنم

إن قيل هل لك في شخصٍ كالصنم ذي بنانٍ رخصٍ كالعنم[١]، وبياضٍ مُجرّد، وخدٍّ مورَّد، وثغرٍ مُرتَّل[٢]، وخصْرٍ مُبَتَّل[٣]، وَطَرْفٍ فيه كَحَلٌ[٤]، وصوتٌ فيه صَحَلٌ[٥]، وفي أعضادٍ لا تلين من بنين وأبناءِ بنين، وفي بناتِ السِّكَّةِ الحُمْرِ[٦]، والسِّكَةِ من أُمَّهات التَّمْرِ[٧]، وفي الأَرْحَبِيَّاتِ العياطل[٨]، واللاحِقيَّاتِ اللواحق الأياطل[٩]، قلتَ بملءِ فيك أشدَّ الهَلِّ[١٠]، وتهلَّلْتَ كالمُسْنِتِ إلى الغيث المُنْهَلِ، وإن عُرِضَ عليك وجهٌ من وجوه الخير فَمُعْرِضٌ، أو بابٌ من أبواب البر فمُمْرِض، أو ذُكِرَتْ آياتُ اللَّه فَعَنُودٌ[١١] نَفُور، أو شُكرتْ آلاء اللَّه فكنودٌ[١٢] نفور، بُنيَ على هوى الدنيا طبعُك، وغُرس على استحبابها نبعُك، فإن جرى حديثها طاب لك

(١) الرخص: الغض اللين الطري، العنم: ثمر أحمر يشبه به الأصبع المخضوب.
(٢) ثغر مرتل: أي أسنان حسنة الانتظام والتناسق.
(٣) مبتَّل: ليس له نظير فهو مميز.
(٤) كحل: سواد أشفار العين.
(٥) الصحل: بحة في الصوت حسنة.
(٦) السكة الحمر: الدنانير.
(٧) السكة من أمهات التمر: أي والسطر من شجر النخل الحامل التمر.
(٨) الأرحبيات: نجائب من الإبل منسوبة لقبيلة أرحب العربية، العياطل: مفردها عيطل وهي الناقة الحسنة الطويلة العنق.
(٩) اللاحقيات اللواحق الأياطل: أي الخيل المنسوبة إلى لا حق، وأياطل مفردها أيطل بمعنى الخاصرة.
(١٠) أشد الهل: أشد الطلب.
(١١) العنود: كثير العناد لا يقبل الحق.
(١٢) كنود: كفور.

الحديث وانبعثَ منك الباعث الحثيث، وأما حديث الآخرة فغثٌ سمعُك يمجُّهُ وكأنَّ في صدرك منه سِناناً يزُجُّهُ[١].

(١) السنان: نصل الرمح، الزج: الطعن.

المقالة الثامنة والخمسون

موسر ومعسر

مُوسر يشُحُّ بالنوال، ومُعسر يُلِحُّ في السؤال، إذا التقيا فجندلَتَان[١] تصطكّان، وجديلتان[٢] من الضرائر تحتكَّان، ذاك كَزٌّ[٣] شحيح عير معوان، له في وجه الصُّعْلُوك[٤] فحيح أفعُوان[٥]، وهذا مُلِحٌّ مُلْحِفٌ، مُحِفٌّ مُحجِفٌ[٦] له دقٌّ بالوجنتين، دقَّ القصَّار بالميجَنَتَين[٧]، إن مُنح تبشَّشَ وتطلَّقَ وتبصبصَ وتملَّق[٨]، وإن مُنعَ أخذ بالمخانيق[٩] ورمى بالمجانيق.

(١) الجندل: الحجارة والشديد العظيم، وفي المثل (جندلتان اصطكَّتا) يضرب للقرِنَين يتصاولان.
(٢) جديلتان: أي وكانا كقبيلتين من الأضداد تصطدمان.
(٣) كزٌّ: ممسكٌ.
(٤) الصعلوك: الفقير.
(٥) أفعوان: حية.
(٦) الأحجاف: الزيادة عن الحد المعروف المألوف.
(٧) أي ضرب بيديه على أعلى خدَّيه كضرب القصَّار الثياب بمخصرتيه أي مدفتيه وهو من بحور الثياب أي يبيضها.
(٨) تبصبص: استبشر، تملَّق: تلطف.
(٩) أي أمسك بمواضع الخنق من الرقبة.

المقالة التاسعة والخمسون

المعاش والمعاد

دبِّرِ المعاش والمعاد يا زير سلمى والمعاد، فليس من اعتاد المضاجع كمن ارتاد المناجع، ولا من أَلِفَ الملاعب كمن كَلفَ المتاعب، الكيِّس مُتجلِّدٌ مُتصلِّبٌ فيما يُجدي عليه متقلب، والعاجز مُتقاعد مُتقاعس عمّا يجبُ فيه التَّيَقُّظُ مُتناعس، فَكِسْ[1] يا كسلان في أمْرَيْك ولا تعجز ونصيبَك من داريْك فاحرِز، ولا تبغِ في متصرَّفاتك إلا طيبَ الحياة والقرب من النجاة.

(١) أي كن كيِّساً.

المقالة الستون

ابن آدم النزق العجول

ابن آدم نزِقٌ[١] عجول لا يزال ينزو[٢] ويحول[٣]، يحسِبُ نَزَقَه هو الذي رزقه، وأنَّ عَجَلَه ممَّا أخَّر أجله، وأنَّ نزوه وطيشه يُطيبانِ عيشَه، وأن جوَلانه وتردُّده يجمعان متبدِّدَه، إن قيل: توقفْ يا رجل وتوقَّرْ يا عَجِل، طار في الشِّعاف مُتَوَقّلاً[٤]، وغار في الشِّعاب مُتوغِّلاً[٥]، وليس بمفطوم عن شيمةٍ مفطور عليها في المشيمة، وأكثر الأخلاق خلقٌ منها الوِقارُ والنزق.

(١) نزق: طائش.
(٢) ينزو: يثب ويحتد.
(٣) يحول: يطوف.
(٤) الشِّعاف: مفردها شعفة وهي رأس الجبل، التوقل: الصعود في الجبل.
(٥) الشِّعاب: مفردها شعب وهو الطريق في الجبل.

المقالة الحادية والستون

وكفى به من حسيب

ما كان في ذمَّتِك من فرضٍ فاقضه، وما كان لك من خصم على وجه الأرض فأرْضِه، ولا تقل أيَّانَ ألاقي الدَّيان، فإنَّك ملاقيه عمَّا قريب، فمحاسَبٌ به وكفى به مِنْ حسيب، واللَّهُ واللَّهِ الخصمُ الألَدُّ، وله المحالُ الأشدُّ[١]، وحسبُك بربك خصيماً، فلا تزْدَدْ عليه خُصُوماً، وبعصيانك إيَّاهُ رَصَماً[٢] فلا تضمُمْ إليه وُصُوماً[٣]، وهب أنك تقولُ: ربي الأكرم، فما تقول فيمن هو من اللؤم ألأم؟

(١) المحال الأشد: الكيد الأشد.
(٢) الرصم: الدخول في الشعب الضيق.
(٣) الوصم: العقدة في العود أو المرض.

المقالة الثانية والستون

اتقِ اللَّه

رحم اللَّه امرأً رئمَ[١] أبويه وَرَحِم، واتَّقى اللَّه الذي يُناشَدُ به والرَّحم، وألِفَ في يساره وعُسرته من عُرِف بخلافه من أُسرته، لم يحمله ذلك على أن يطوِيَ عنه كشْحاً[٢]، أو يضربَ عن تعهُّده صفحاً، أو يشُقَّ عليه ويشُقَّ له العصا إلى أن يترك الرمي من ورائه بالحصى، ألا إن الأُلفة مع العشيرة من الكُلفة العسيرة، والحرُّ من يُحامي على ذوي القربى، ولا يتحاماهم كتحامي الأملسي للجَرْبَى وليس كذلك إلا فرعُ نَبْعَةٍ مَعَدِّيَّةٍ وذو نفسٍ مستهديةٍ مهدية.

(١) رئم: أحبَّ.

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع، والمقصود به هنا الانقطاع وإضمار العداوة.

المقالة الثالثة والستون

منهل العدل الصافي

ما شرب رَنْقاً[١] بعد صافٍ كمدفوعٍ إلى جوْرٍ بعد إنصاف، مَنهلُ العدلِ أصفى من المرآة بعد الصِقَّال[٢]، ومن قريحة البليغ الصائب في المقال، ومواردِ الجوْر أكدَرُ من هِناءِ الطَّال[٣] ومن الوعد الممزوج بالمطال[٤]، المنصفُ يُبغضُ حقَّ أخيه فيُولِّيه، والجائر مشغوفٌ به فلا يُخلِّيه.

(١) رنقاً: الماء الكدر.
(٢) الصِقَّال: الجلاء.
(٣) هناء الطَّال: الهناء القطران، والطال: الطالي الذي يلطخ الإبل بالقطران.
(٤) المطال: أي التسويف.

المقالة الرابعة والستون

لماذا أنت صعب المراس؟

شِبتَ وعُرامُك ما وَخَطَ[١] عارضيه مَشيب، وشختَ وغرامُك رداءُ شبابه قشيب[٢]، ما لي أراك صعب المراس جامحَ الرأس، كأنَّ وافدَ المشيب لم يَخْطِمْكَ، وكأنَّ ارتقاء السِّنِ لم يحطِمْك، الشيخوخةُ تكسبُ أهلَها سَمْتاً وأنت ما أكسبتْكَ إلا أمتاً[٣]، لو علمتَ أيَّ وفدٍ[٤] حلَّ بفودك لتبرقعْتَ حياءً من وَفدِك، ولكنَّ مُحيَّاكَ لم يتعلَّم الحياءَ ولم يتهجَّ من حروفه الحاء ولا الياء[٥]، تَثِبُ إلى الشر كما تَثِبُ الظباء، وتلهثُ إلى اللهو كما يلهثُ الظِّماء، إن حَمْحَمَ الباطلُ فأسمعُ مِنْ سِمْعٍ[٦]، وإنْ هَمْهَمَ الحقُّ فكأنَّك بلا سَمْعٍ، حَمَلْتَ نفسَكَ على الرِّياضاتِ وهيَ رَيِّضَةٌ، ومن يحتلِبُ اللِّبَاءَ من اللبوة المُغَيّضة.

(١) العرام: سواد مختلط ببياض، وخط: خالط.
(٢) قشيب: جديد.
(٣) أي ضعفاً ووهناً.
(٤) الوافد هنا الشيب.
(٥) كناية عن الحياء الذي لا يعرفه.
(٦) السِمْع: ولد الذئب من الضبع.

المقالة الخامسة والستون

العلم والجهل

العلم صعبٌ والجهلُ منه أصعب، والتُّقى تَعَبٌ والفجورُ منه أتعب، الصعبُ ما أعقبك الفَجَعَات، والتعبُ ما جرَّ عليك التَّبِعَات، مع المتقي عِدَّةُ كُفلاء[1] بتوهين خَطْبِهِ وتهوين صَعْبِه، وَشِيك التَّفَصِّي والثناءُ الجميل في عاجله، والنجاةُ والثواب الجزيل في آجله لأنه ممَّن نظر في الحقائق وتفطَّن، واستشفَّ ضمائر الأمور واستبطن، طوبى لمن أصغى إلى داعي الحق وأصاخ ولم يسُدَّ عن استماع دعوته الصِمَّاخ.

(١) قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا * ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

المقالة السادسة والستون

الخير المتقي

كلُّ آخذٍ بالاحتياطِ غيرُ ناكبٍ عن الصراط[١]، وكلُّ خيِّرٍ مُتَّقي مُتَخيِّرٌ مُنتقي، لا يصطفي إلا الفاقعَ من الألوان، ولا يصطلي النار ذاتَ الدُّخان، يقول: إن أوَّلَ العَمَى[٢] أن أرعى حول الحِمى، وإنَّ هذا ليُرْدِيني، وإنَّ ذاك مما يجرح ديني، وإنَّه وإنَّه، فلا يزال يخشى الظَّنَّة كالجافي السالك في الطريق الشائك[٣].

(١) المقصود قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

(٢) الضلال.

(٣) أي أن ذاك الذي يأخذ بالحيطة والحذر هو الورع الذي يحاسب نفسه فهو كالماشي في طريقٍ ذات شوكٍ بلا نعلٍ يخاف على نفسه فلا يمشي إلا على نور وهداية وبصيرة.

المقالة السابعة والستون

أيها الغريب

أحلكُ الغراب وهو أسود غِرْبيب، أحلكُ أم حالُكَ يا غريب[١]؟ كيف لا يَسْوَدُّ حالُ البعيد عن أَقْرِبَيْهِ؟ ولا تبيضُّ لِمَّةُ المُفارقِ لأُمِّه وأبيه، ما غُلِبَ غريبٌ فنصره عريبٌ، وما أصبح مغترِبٌ إلا وخدُّهُ ترب[٢]، لا يُعَدُّ في أهل الفِطَن من بَعُدَ عن الأهل والوطن، ورضيَ لنفسه أن تترامى به الأسفار وتتقاذف به القفار، جازعاً بلداً إلى بلدٍ نازِعاً إلى مالٍ وولد ليُقال إنه جوَّالةٌ مدرَّب، جوَّابةٌ[٣] مُجرِّبٌ، بلى إنَّ الغُربةَ دُربةٌ[٤] لولا أنها كُربة، والسفر اغتنام[٥] إلا أنه اغتمام، ولكنَّ المسافرَ المهاجرَ إلى اللَّه غازياً في سبيله، أو حاجاً لبيته زائراً لقبر رسوله، هو المسافرُ المسعود، العزُّ بناصيته معقود.

(١) أي حالك أيها البعيد عن الأهل والوطن أشدُّ حلكةً من منقار الغراب الأسود.
(٢) أي خده لازق بالتراب فلا يصيب الخير.
(٣) أي كثير الجوب في الأرض قاطعاً لمسافاتها.
(٤) أي تهذيب.
(٥) غنيمة بالفوائد.

المقالة الثامنة والستون

خير اللسان وخير الكلام

خير اللسان المخزون، وخير الكلام الموزون، فحدِّث إن حدَّثت بأفضلَ من الصمت، وزيِّن حديثك بالوقار وحُسْنِ السَّمْتْ، وأرسل حَدْسَكَ لكلماتك في اتِّسَاق أنابيب السمهرِي[١]، ولا تقرع في إرسالها ظنابيبَ المهرِي[٢]، إن الطيش في الكلام يترجم عن خِفَّةِ الأحلام، وما دخل الرِّفق شيئاً إلا زانه، وما زان المتكلِّمَ إلا الرَّزانة.

(١) أي حسِّن كلامك في انتظام أنابيب الرمح على نسقٍ مستقيم ككعاب الرمح السمهري وهو من أقوى الرماح، وسمهر رجل كان يثقف الرماح.

(٢) قرع الظنابيب: ضرب حروف السيقان وهو كناية عن الاستعجال، المهري: البعير نسبة لمهرة حي من أحياء العرب تنسب له إبل كريمة.

المقالة التاسعة والستون

أيها الشيخ المنتفخ

أيها الشيخ المُوطَّأُ العَقِب[١]، المنتفخ[٢] بالكنية واللَّقَب، إذا ركبت مَهْرِيّاً أو شهرياً[٣] فلا تتخذ قول حاتم[٤] ظِهْرِيّاً، واحذر العقاب فلا تذر العقاب، واعلم أنَّه من مساوي الرجال.

(١) أي تمشي الناس خلفه، والموطأ هو السهل.
(٢) المتكبر.
(٣) مهرياً: نوع من الإبل الكريمة، شهرياً: نوع من البرذون الحسن.
(٤) أي حاتم الطائي.

المقالة السبعون

مساوئ الحرص

الحرص ما يحرُصُ أَدَمَ[١] الحِراص، ويقرُضُ الأعراض[٢] كالمقراض[٣]، وهو واللَّهِ داعيةُ الدُّنُوِّ من المطمع الدَّنيِّ، كما أنَّ القناعة سببُ السُّمُوِّ إلى المطلع السَّنيّ، تماسُكُ القانع يُريك التَّرِبَ في حُلَّتِيَ المُترِب، وتهالُكُ الحريص يُريك المُتربَ في طِمْرَي التَّرِب، فإذا صبا إلى الحرص الصابون، فاغسل عنه ثوبك بالحُرْضِ[٤] والصابون، إن نقاء العِرضِ من الحرص والطَّمع هو النَّقاءُ من كُلِّ دَنَسٍ وَطَبَع.

(١) الأدم: الجلد.
(٢) الأعراض: الشرف.
(٣) المقراض: ما يُقرض به الحديد وغيره.
(٤) الحُرض: الجصّ.

المقالة الحادية والسبعون

الكيس والعاجز

الكيِّسُ كُلُّ الكيِّسِ والعاجز كُلُّ العاجزِ من هتف به داعي العقل فلبَّاهُ بالسَّعْيِ الناجز، ومن قعد به التَّضْجيعُ مُعتلاً بالهوى الحاجز.

المقالة الثانية والسبعون

دنيا مخادعة

الدنيا خُدَعٌ والناسُ بِدَعٌ[١]، والموتُ لا ينجو مِنه الأعصمُ والصَّدَع[٢]، فخُذْ ما شِئتَ وإن شِئتَ فدع.

(١) أي أصحاب بدع.

(٢) الأعصم: الغراب الأعصم، الصَّدَع: الوعل والظباء والحمر والإبل.

المقالة الثالثة والسبعون

المرء بأكبريه

فالمرءُ بأصغريه قلبِهِ ولسانِهِ، المرءُ بأكبريهِ عملِهِ وإيمانِهِ، وما يغني عنه أصغراهُ إذا خانه أكبراه. وإنَّ أعزَّ ما بين دَفَّيْ إياسٍ[١] بعصُ زَكَنِهِ، وما بين فَكَّيْ قُسّ[٢] معشارُ لَسَنِهِ.

(١) هو إياس بن معاوية الزني قاضي البصرة.
(٢) هو قس بن ساعدة الأيادي فصيحٌ خطيب.

المقالة الرابعة والسبعون

البُرد المُذال

أيها العبدُ المُذال[١]، ما هذا البُردُ[٢] المُذال؟ وما هذا الخدُّ الأصعرُ والطَّرْفُ الأَصْوَر؟ يا هذا سَوِّ خدَّك وأجفانك فلعلَّ القَصارَ يدُقُّ أكفانك[٣].

(١) المُذال: المهين.
(٢) البُرد المُذال: الثوب الطويل.
(٣) أي لعل الخيَّاط مشتغلاً بعمل ثوبٍ يكون كفنك.

المقالة الخامسة والسبعون

الكلمة تقول

رُبَّ سِلاح يقول لحامله: ضعني، ورُبَّ كلمةٍ تقول لقائلها: دعني. إنَّ أسَلَةَ اللسانِ[١] تَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الأسل[٢] وتأخذ ما لا تأخذ القَنَا العَسَلُ[٣]، وأيمُ اللَّه إنَّ سَفْجَ مصونِ الماء أشدُّ من سفك محقون الدماء، فإياك وَفَلَتَات الكلم، إلا المُتدبَّرَ منها بفيم ولم؟

(١) أسلة اللسان: طرف اللسان.

(٢) أي النبل.

(٣) القنا: الرماح، العسل: الاهتزاز الشديد.

المقالة السادسة والسبعون

الشوق إلى الجنة

لن ينال اللَّهَ تعالى أعطافٌ تتهافت ولا أطرافٌ تتماوت، ولكن ينالُهُ قلبٌ شَفَقَاً[١] من النار يتلطَّى وشوقاً إلى الجنة يتشظَّى[٢]، وخُلُوصُ نيَّةٍ بالعمل مشفوع[٣]، وشكٌ باليقين مدفوع.

(١) شفقاً: خوفاً.
(٢) يتشظى: يتطاير.
(٣) مشفوع: مقرون.

المقالة السابعة والسبعون

العالم العامل

العِلم للعامل كالمِطْمَرِ للباني، والعمل للعالم كالرّشاء للساني، ومن لا مِطْمَرَ له لم يستوِ بناؤه، ومن لا رشاء له لم يرتوِ ظماؤه، فمن أراد أن يكون الكامل فليكن العالم العامل.

المقالة الثامنة والسبعون

التفقه والتفكه

بِتُّمْ تفقَّهون[١] فظلتُمْ تفكَّهون[٢]، فَمِنْ ثمَّ زلَّ[٣] عنكم التوفيق وطال عليكم الطريق، وَيْحَكُمْ أشْرَعُكُمْ تخرُّجاً[٤] وأبْرَعُكُمْ أحسَنُكُمْ تحرُّجاً[٥] وأورعُكُمْ.

(١) تفقَّهون: صرتم فقهاء.
(٢) تفكَّهون: تعجبون.
(٣) زلَّ: غاب.
(٤) تخرُّجاً: تلخصاً.
(٥) تحرُّجاً: تأدباً.

المقالة التاسعة والسبعون

التصلب في دين اللَّه

تَصَلَّبَ[١] في دين اللَّه رجالٌ فَجُهِّز من كلماتهم جنودٌ مجنَّدة، وجُرِّد من ألسنتهم سُيوف مُهنَّدة، ونُكِسَ لهم رؤوسُ الصِّيّد[٢]، وخُفِض لهم أجنحةُ الصناديد[٣]، وأَدْهنَ آخرون فَضَرِيتْ بهمُ الأكالب[٤]، وبالتْ عليهم الثعالب، وَفَرَسَتْهُمُ الأنيابُ والأظافر، وداستْهُمُ الأخفافُ والحوافر.

(١) تصلَّب: تشدَّد وتثبَّت.
(٢) الصيد: مفردها أصيد أي الملك والمتكبر.
(٣) الصناديد: مفردها صنديد أي السيد الشجاع.
(٤) الأكالب: مفردها أكلب وهو جمع كلب.

المقالة الثمانون

زينة الكواكب

إملأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجِلْهُما في جملة هذه العجائب متفكراً في قدرة مُقدِّرِها مُتدبِّراً في حكمة مُدبِّرها قبل أن يسافر بك القدر، ويُحال بينك وبين النظر.

المقالة الحادية والثمانون

العيشة الراضية

من لك بالعيشة الراضية مع الحياة الماضية، هيهات ماها هنا هنيءٌ وليس مع المُضيِّ أمرٌ مُضيء، وإنما يسعد ولا يشقى طالبُ ما لا ينفدُ ويبقى.

المقالة الثانية والثمانون

حلاوة العفة

أشعِرْ قلبك حلاوةَ العِفَّة، واضْرِهِ[1] على الاكتفاء بالعُفَّة، فإن ما زاد هاجِمٌ بك على الشُبُهات، وربما ابتلاك بصغار التُّرَّهات، ولا خيرَ اليوم في الرخاء والرَّغَد لمن تنزِلُ به الشِّدَّةُ ضَحوَةَ الغد.

(١) أي عوِّده.

المقالة الثالثة والثمانون

عندما يأتي الموت

ليتهم إذ لم يأمروا بالمعروف لم ينتكبوه[١]، وإذا لم ينهوْا عن المنكر لم يرتكبوه، يغدُون على الدنيا حِرَاصاً كالسباع تغدُو خماصاً[٢]، الغيثُ حيثما ساروا والحَيْفُ كيفما داروا، طوبى لمن أتاه بريد الموتِ بالإشخاص[٣] قبل أن يفتحَ ناظريه على هؤلاء الأشخاص.

(١) لم ينتكبوه: لم يعدلوا عنه.
(٢) خماصاً: ضامرة البطون من شدة الجوع.
(٣) الإشخاص: التسفير.

المقالة الرابعة والثمانون

أيها المغرور

يا مغرور لا عمل مبرورٌ، ويا شقيٌّ لا صدْرَ نقيٌّ، ويا غُدَرُ غديرُك كُلُّهُ كَدَرٌ، مِثلُك لا يرضى به أحد، فهل يرضى به الأحدُ الصمد؟

المقالة الخامسة والثمانون

الغفلة

كم أدَلْتَ[١] الغفلةَ من الفطنة وأطَلْتَ الاصطِلاء بنار الفتنة؟ وكأيِّن زلَّتْ بك القدم ثم لم تقرع السِّنَّ من الندم، ليت شعري متى تنتبه من رِقْدَتِك ومتى تنتعشُ من صرعتِك.

(١) أدلت: أي جعلت الدولة والسلطان للغفلة، والمقصود هنا أنَّ كثيراً ما غلبت البلاهة على الحذق.

المقالة السادسة والثمانون

رُبَّ علوم لا تنفع

رُبَّ علوم لا تنفع وأعمالٍ لا تُرفع، وليس لأهلها منها إلا كَدُّ القرائح، وَكَدْحُ الجوارح، فأهلاً بمن استخلص العلوم الدينية وأخلص الأعمال بالنيّة.

المقالة السابعة والثمانون

موصوف ومنعوت

رُبَّ موصوفٍ بالمكارم والمساعي وهو معروف بالمكاره والمساوي، وَمَنْعُوتٍ بالحِلْم الرَّاسي والعلم الراسخ، وهو منها على أميالٍ وفراسخ، حسبك بهذا الشطَط مستنزِلاً للسخط.

المقالة الثامنة والثمانون

أجداد وأبناء

الأجداد أبْلَتْهُمُ الأجداثُ[١] والآباء أكلتهم الآباد[٢]، والأبناء عما قليل أنباء[٣] ففيم الحرصُ على ظلٍّ قالصٍ ومقيلٍ أنت عنه غداً شاخص.

(١) الأجداث: القبور.
(٢) الآباد: أبادتهم الدهور.
(٣) أي بعد قليل يصبحون أخباراً لمن بعدهم.

المقالة التاسعة والثمانون

حق الثناء

ألا إنَّ حق الثناء لمن له حق السَّناء، ولا أعلى من ربِّ العرش وأسنى، ولا أحسن من أسمائه الحسنى، فاستفرغ في تمجيدك طوْقَكَ واجتهدْ أن لا يكونَ مُمجِّدٌ فوقك.

المقالة التسعون

قصر الأجل

قِصَرُ أجلٍ وطولُ أملٍ وتقصيرٌ في عملٍ شدَّ ما أقفلَ السهوُ قُلوب القوم، وخاط عيونَهُمْ كَرَى النوم، فجفُّوا عن النظر والاعتبار، وَزَلُّوا عن الأبصار والاستبصار.

المقالة الحادية والتسعون

دنيا الأكباد الجرحى

يا دنيا كم لك من أكبادٍ جرحى ومن أجفانٍ قرحى؟ تفجُّعاً للمصبوب من فراقك فوق رؤوس عُشَّاقك، على أنَّ نكاياتِك لا تُحصى، وشكاياتهم عددُ الحصى.

المقالة الثانية والتسعون

هذه الدار الغادرة

هذه الدارُ بساكنها غَدَّارٌ، فاهرب منها واعلم أن الهرب منها أسلم، ولا تُنِخْ بهذه العَقْوَة إن كنت تحاف الشقوة، ولا تطمع في خيرها فإن الخير في غيرها.

المقالة الثالثة والتسعون

رزق مبسوط

رِزْقٌ مبسوط ومقدَّر، وشِربٌ صافٍ ومكدَّر، ورجلٌ يحسو الماء القَرَاح، وآخرُ درَّتْ له اللقاح، وما أُتي هذا من عجزٍ وَوَهْنٍ، وما أُتي ذاك من فضلٍ وذكاءٍ وذهنٍ، ما هذا إلا قضاء مَنْ بيده الملكوت، ومشيئةُ من إليه الكتاب الموقوت.

المقالة الرابعة والتسعون

الحلال والحرام

يَقْطُرُ الحلال الطيب، والحرام غَريزٌ صيِّب، ولما طال وَنَزُر خيرٌ مما خبث وغزر، كم من آكلٍ حَمَلٍ رضيع أُعِدَّ له طعام من ضريع؟ وشارب كأس رحيق بُشِّر بعذابِ الحريق؟

المقالة الخامسة والتسعون

صديق

صديقُك من ينصحُ لك ولحميمك وينضحُ عنك وعن حريمك، فإن كنت صديق نفسِك فَلِمَ أخطأها نُصحُك؟ وَلِمَ تخطَّاها نَصْحُك؟ بلى نُصْحُك لها أن تُمتّعها بالملاعب، وَنَضْحُكَ عنها أن تمنعها عن المتاعب، هذا لعمري ظُلْمٌ منك وعُدوان، ونُصحٌ كنصحِ أَمَةِ بني عَدْوان[1].

(١) الأَمَةُ هذه اسمها (شولة) كانت مملوكة لبني عدوان كانت تنصحهم فيعود نصحها عليهم بالوبال والشر.

المقالة السادسة والتسعون

وحار الدليل

خفَّ الزاد وجفَّ المزاد، وطال السبيل وحار الدليل، وما يُدريك على مَ تَقَدَّم، أتثبُتُ أم تزِلُّ بك القدم؟

المقالة السابعة والتسعون

نصيحة زمخشرية «جداً»

لا تخطبِ المرأةَ لحُسنها ولكن لحُصنها، فإن اجتمع الحُصنُ والجمال فذاك هو الكمال، وأكمل من ذلك أن تعيش حصوراً وإن عمَّرت عُصوراً.

المقالة الثامنة والتسعون

يا جمود العين

يا جمودَ العين[١] كأنَّك بغرابِ البين، أين أدمُعُك الذَّوائب[٢] وقد شابت منك الذَّوائب[٣]؟ تُعَشِّشُ أُمُّ الرَّدى وَتَبِيض حيث تطلُعُ الشَّعراتُ البيض، لم يبقَ إلا الحمْلُ على الآلةِ الحدباء[٤]، والطَّرْحُ تحت الرمل والحصباء[٥].

(١) أي يا صاحب عين لا تدمع.
(٢) أي السوائل.
(٣) أي شعر الناصية.
(٤) أي النعش.
(٥) أي صغار الحجارة.

المقالة التاسعة والتسعون

يا أهل النجاة

ما أهلُ النجاة والخلاص إلا أهلُ الوفاء والإخلاص الذين أَوْفُوا اللَّه بالمواثيق، وأخلصُوا دينهم بعد التصديق، فيا ليت شِعري من أين يرجو أنه ممن ينجو من هو يوماً فيوماً أغدر وحاله ساعةً فساعةً أكدر؟

المقالة المائة

كيف رضيت بالقذى؟

لم تَرْضْ لِشَرَابك إلا أن يروَّف وأن يُصفَّى ويُصفَّق، وإلا رَمَيْتَ بمجاجته، وربما أنحيتَ على زجاجته، فكيف رضيتَ لدينك بالقذى والمؤمنُ لا يرضى لِدِينه بذا؟

فهرس المحتويات

نبذة عن حياة الزمخشري ٥
خطبة المؤلف ٩
المقالة الأولى: الذي يخفض المرء ١١
المقالة الثانية: أصلك يا ابن آدم ١٢
المقالة الثالثة: عُمرٌ ينقضي ١٣
المقالة الرابعة: أُسطوانة وخنزوانة ١٤
المقالة الخامسة: يا ابن أبي ١٥
المقالة السادسة: دعاؤك وعملك ١٦
المقالة السابعة: هذا هو التواضع ١٧
المقالة الثامنة: ما أسعدك! ١٨
المقالة التاسعة: الشقي المخذول ١٩
المقالة العاشرة: حق المؤاخاة ٢٠
المقالة الحادية عشرة: الشهم الحذر ٢١
المقالة الثانية عشرة: الماعون والناعون ٢٢
المقالة الثالثة عشرة: المستجدي ٢٣
المقالة الرابعة عشرة: دع الهوينا ٢٤
المقالة الخامسة عشرة: الدعة والضعة ٢٥
المقالة السادسة عشرة: الكريم والضيم ٢٦
المقالة السابعة عشرة: الوجه القبيح ٢٧
المقالة الثامنة عشرة: عزة النفس
والموت الأحمر ٢٨
المقالة التاسعة عشرة: الحِمل والحلم ٢٩
المقالة العشرون: المروءة ٣٠
المقالة الحادية والعشرون: اعتني
وابتني واقتني ٣١
المقالة الثانية والعشرون: الباطل واللَّدد ٣٢
المقالة الثالثة والعشرون: خسوف
وفيلسوف ٣٣
المقالة الرابعة والعشرون: نحو قلب سليم . ٣٤
المقالة الخامسة والعشرون: النفس التَّقية ... ٣٥
المقالة السادسة والعشرون: منكرات
وسكرات ٣٦
المقالة السابعة والعشرون: النعامة
والزَّعامة ٣٧
المقالة الثامنة والعشرون: المُرائي ٣٨
المقالة التاسعة والعشرون: إلى المسجد ... ٣٩
المقالة الثلاثون: الدنيا أدوار ٤٠
المقالة الحادية والثلاثون: عندما
يأمن القلب ٤١
المقالة الثانية والثلاثون: بلد الوالي
الغشوم ٤٢
المقالة الثالثة والثلاثون: يا عبد الدينار ٤٣
المقالة الرابعة والثلاثون: الشرف ٤٤
المقالة الخامسة والثلاثون: هذا العبد
الظالم ٤٥
المقالة السادسة والثلاثون: ويلٌ
لأهل الفخر ٤٦
المقالة السابعة والثلاثون: الرواية
عن فلان وفلان ٤٧
المقالة الثامنة والثلاثون: الحق والبرهان ... ٤٨
المقالة التاسعة والثلاثون: الساهي
واللاهي ٤٩
المقالة الأربعون: القاضي المرتشي ٥٠
المقالة الحادية والأربعون: الفرائض
والجهاد ٥١
المقالة الثانية والأربعون: العلماء
وأنواعهم ٥٢
المقالة الثالثة والأربعون: علماء السوء ٥٣
المقالة الرابعة والأربعون: اتقاء الكبائر ٥٤
المقالة الخامسة والأربعون: حزناً
على التفريط ٥٥
المقالة السادسة والأربعون: أمر اللَّه
للروح الأمين ٥٦
المقالة السابعة والأربعون: الحازم ٥٧

المقالة الثامنة والأربعون: بين الجد والتشمير ٥٨
المقالة التاسعة والأربعون: الاضطراب في النهار ٥٩
المقالة الخمسون: بلاد اللَّه، خلق اللَّه ٦٠
المقالة الحادية والخمسون: دعاء ودمعة ... ٦١
المقالة الثانية والخمسون: أيها الملك ٦٢
المقالة الثالثة والخمسون: الثقة بالطبيب ... ٦٣
المقالة الرابعة والخمسون: مِلْ عن القسوط ٦٤
المقالة الخامسة والخمسون: المطيق والمنطيق ٦٥
المقالة السادسة والخمسون: الجنون فنون، والفنون جنون ٦٦
المقالة السابعة والخمسون: هذا هو الشخص الصنم ٦٧
المقالة الثامنة والخمسون: موسر ومعسر ... ٦٨
المقالة التاسعة والخمسون: المعاش والمعاد ٦٩
المقالة الستون: ابن آدم النزق العجول ٧٠
المقالة الحادية والستون: وكفى به من حسيب ٧١
المقالة الثانية والستون: اتقِ اللَّه ٧٢
المقالة الثالثة والستون: منهل العدل الصافي ٧٣
المقالة الرابعة والستون: لماذا أنت صعب المراس؟ ٧٤
المقالة الخامسة والستون: العلم والجهل .. ٧٥
المقالة السادسة والستون: الخير المتقي ٧٦
المقالة السابعة والستون: أيها الغريب ٧٧
المقالة الثامنة والستون: خير اللسان وخير الكلام ٧٨
المقالة التاسعة والستون: أيها الشيخ المنتفخ ٧٩
المقالة السبعون: مساوئ الحرص ٨٠
المقالة الحادية والسبعون: الكيس والعاجز . ٨١
المقالة الثانية والسبعون: دنيا مخادعة ٨٢
المقالة الثالثة والسبعون: المرء بأكبريه ٨٣
المقالة الرابعة والسبعون: البرد المُذال ٨٤
المقالة الخامسة والسبعون: الكلمة تقول ... ٨٥
المقالة السادسة والسبعون: الشوق إلى الجنة ٨٦
المقالة السابعة والسبعون: العالم العامل ... ٨٧
المقالة الثامنة والسبعون: التفقه والتفكه ٨٨
المقالة التاسعة والسبعون: التصلب في دين اللَّه ٨٩
المقالة الثمانون: زينة الكوالب ٩٠
المقالة الحادية والثمانون: العيشة الراضية .. ٩١
المقالة الثانية والثمانون: حلاوة العفة ٩٢
المقالة الثالثة والثمانون: عندما يأتي الموت ٩٣
المقالة الرابعة والثمانون: أيها المغرور ٩٤
المقالة الخامسة والثمانون: الغفلة ٩٥
المقالة السادسة والثمانون: رُبَّ علوم لا تنفع ٩٦
المقالة السابعة والثمانون: موصوف ومنعوت ٩٧
المقالة الثامنة والثمانون: أجداد وأبناء ٩٨
المقالة التاسعة والثمانون: حق الثناء ٩٩
المقالة التسعون: قصر الأجل ١٠٠
المقالة الحادية والتسعون: دنيا الأكباد الجرحى ١٠١
المقالة الثانية والتسعون: هذه الدار الغادرة ١٠٢
المقالة الثالثة والتسعون: رزق مبسوط ... ١٠٣
المقالة الرابعة والتسعون: الحلال والحرام ١٠٤
المقالة الخامسة والتسعون: صديق ١٠٥
المقالة السادسة والتسعون: وحار الدليل . ١٠٦
المقالة السابعة والتسعون: نصيحة زمخشرية «جداً» ١٠٧
المقالة الثامنة والتسعون: يا جمود العين . ١٠٨
المقالة التاسعة والتسعون: يا أهل النجاة . ١٠٩
المقالة المائة: كيف رضيت بالقذى؟ ١١٠